

كامل كيلاني
غزلان الغابة

غِزْلانُ الغَابَةِ

عِزْلانُ الغَابَةِ

تأليف
كامل كيلانى

صفحات
http://www.safahat.org

غِزْلانُ الغَابَةِ

كامل كيلانى

موقع صفحات
جميع الحقوق محفوظة للناشر موقع صفحات
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن موقع صفحات غير مسئول عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإلكتروني: safahat@safahat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.safahat.org

المحتويات

الفصل الأول

(١) «حَبُّ الرُّمَّانِ»

عاشَ فِى قَديمِ الزَّمانِ، مَلِكٌ عَظِيمُ الشَّأنِ، ٱسْمُهُ «حَبُ الرُّمَّانِ». وَكانَ الْأَخْيارُ يُحِبُّونَهُ وَيحْتَرِمُونَهُ لِعَدْلِهِ وَطِيبَتِهِ، وَالْأَشْرارُ يَخافُونَهُ ويَرْهَبُونَهُ لِحَزْمِهِ وَقُوَّتِهِ. وَكانَتْ زَوْجُهُ الْمَلِكَةُ «لُؤْلُؤَةُ» مِثْلَهُ بَراعَةً وَعَقْلًا، وَطِيبَةً وَعَدْلًا، وَسَماحَةً وَفَضْلًا.

(٢) «الشَّقْراءُ»

وَقَدْ رَزَقَهُما اللهُ — سُبْحانَهُ — أَمِيرَةً صَغِيرَةً، أُشْرِبَ بَياض وَجْهِها بِحُمْرَةٍ صافِيَةٍ؛ فَأَطْلَقا عَلَيْها لَقَبَ «الْأَمِيرَةِ الشَّقْراءِ».

وَكانَ شَعْرُها الْبَدِيعُ الْأَصْفَرُ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِى الْجَمالِ، وَقَلْبُها الطَّاهِرُ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِى الطِّيبَةِ والسَّماحَةِ. وَكانَتْ — إِلَى ذٰلِكَ — آيَةً فِى حُسْنِ الْمُحاضَرَةِ، وَبَدِيعِ الْمُسامَرَةِ، وَلُطْفِ الْمُعاشَرَةِ.

وَكانَ مِنْ سُوءِ الْحَظِّ أَنْ قَضَتِ الْمَلِكَةُ «لُؤْلُؤَةُ» نَحْبَها — بَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلةٍ مِنْ مِيلادِ «الشَّقْراءِ» — وَخَلَّفَتْها يَتِيمَةً. فَجَزِعَ الْمَلِكُ «حَبُّ الرُّمَّانِ» لِفَقْدِها، وَطالَ حُزْنُهُ وَبُكاؤُهُ عَلَيْها.

وَلَمْ تَشْعُرِ «الشَّقْراءُ» بِفَقْدِ أُمِّها حِينَئِذٍ، وَلَمْ تَدْرِ بِالْخَسارَةِ الْفادِحَةِ الَّتِى مُنِيَتْ بِها. وَلَها الْعُذْرُ فِى ذٰلِكَ؛ فَإِنَّ طِفْلَةً فِى مِثْلِ سِنِّها لا يُمْكِنُ أَنْ تَشْعُرَ بِما حَوْلَها. فَلا

عَجَبَ إذا قَضَتْ أَيَّامَها ضاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، وَلَمْ يَشْغَلْها ذٰلِكَ الرُّزْءُ الْفادِحُ عَنِ الرَّضاعَةِ الْهَنِيَّةِ، والنَّوْمِ الْهادِئِ الْمُطْمَئِنِّ.

وَكانَ «حَبُّ الرُّمَّانِ» يُحِبُّ طِفْلَتَهُ الْحُبَّ كُلَّهُ، كَما كانَتِ الطِّفْلَةُ مَشْغُوفَةً بِأَبِيها شَغَفًا لا نَظِيرَ لَهُ.

وَكانَ الْمَلِكُ يُهْدِى إِلَيْها أَجْمَلَ اللُّعَبِ، وَأَفْخَمَ الْمَلابِسِ، وَأَطْيَبَ الْفاكِهَةِ. وَكانَتِ السَّعادَةُ تَغْمُرُها، وَأَسْبابُ الْهَناءَةِ تَحُوطُها مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

(٣) «سُمَيَّةُ»

وَلَمْ تَمْضِ سَنَتانِ حَتَّى ٱجْتَمَعَ رَأْىُ الشَّعْبِ عَلَى تَزْوِيجِ الْمَلِكِ، رَجاءَ أَنْ يَكُونَ لَهُ غُلامٌ يَخْلُفُهُ فِى مُلْكِهِ.

فَحَزِنَ الْمَلِكُ لِهٰذا الْقَرارِ، وَقابَلَ هٰذا الإِجْماعَ — أَوَّلَ الْأَمْرِ — بِالرَّفْضِ، وَفاءً لِزَوْجِهِ الرَّاحِلَةِ، وَبِرًّا بِابْنَتِها «الشَّقْراءِ».

ثُمَّ انْتَهَى إِلَى الْقَبُولِ والإِذْعانِ نُزُولًا عَلَى إرادَةِ شَعْبِهِ، وَتَحْقِيقًا لِرَغْبَتِهِ؛ فَقالَ لِوَزِيرِهِ «عِمادٍ»: «لَقَدِ اجْتَمَعَ رَأْىُ الشَّعْبِ — أَيُّها الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ — عَلَى أَنْ أَتَزَوَّجَ. وَقَدْ تَرَكْتُ لَكَ أَنْ تَخْتارَ مَنْ تَأْنَسُ فِيها الطِّيبَةَ وَكَرَمَ النَّفْسِ مِنَ الْأَمِيراتِ. فَلَيْسَ يَعْنِينِى — مِنَ الزَّوْجِ الْجَدِيدَةِ — إِلَّا أَنْ أَثِقَ بِأَنَّها لَنْ تُسِيءَ إِلَى «الشَّقْراءِ».

فَقالَ لَهُ الْوَزِيرُ «عِمادٌ»: «السَّمْعُ والطَّاعَةُ لَكَ.»

وَسافَرَ — عَلَى الْفَوْرِ — يَجُوبُ الْبِلادَ، وَرَأَى كَثِيرًا مِنَ الْأَمِيراتِ، ثُمَّ انْتَهَى بِهِ الْمَطافُ — آخِرَ الْأَمْرِ— إِلَى الْمَلِكِ «نَوْفَلٍ» وَكانَتْ لَهُ ابْنَةٌ جَمِيلَةٌ ذَكِيَّةٌ لَطِيفَةٌ اسْمُها «سُمَيَّةُ». وَهِىَ — فِيما يَبْدُو مِنْ مَظْهَرِها — طَيِّبَةُ الْأَخْلاقِ، أَمَّا وَجْهُها فَهُوَ آيَةٌ فِى الْجَمالِ. فَأَسْرَعَ الْوَزِيرُ إِلَى أَبِيها يَسْأَلُهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِى تَزْوِيجِ ابْنَتِهِ بِمَلِيكِهِ «حبِّ الرُّمَّانِ».

وَهٰكَذا انْخَدَعَ بِها الْوَزِيرُ مأْخُوذًا بِمَظْهَرِها، دُونَ أَنْ يُعْنِّى نَفْسَهُ أَوْ يُتْعِبَها بِالتَّثَبُّتِ مِنْ أَخْلاقِها، وَتَعَرُّفِ حَقِيقَةِ أَمْرِها، ناسِيًا قَوْلَ الْقائِلِ الْحَكِيمِ:

وَلا تَحْكُمْ بِأَوَّلِ ما تَراهُ   فَأَوَّلُ طالِعٍ فَجْرٌ كَذُوبُ!

وَكانَتِ الْفَتاةُ — عَلَى جَمالِ مَظْهَرِها — غايَةً فِى الشَّراسَةِ والْغَيْرَةِ وَسُوءِ الْخُلُقِ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدِ الْمَلِكُ «نَوْفَلٌ» فِى إِجَابَةِ طَلَبِ الْوَزِيرِ، وَهُوَ فَرْحانُ بِالْتَخَلُّصِ مِنِ ابْنَتِهِ الْحَمْقاءِ. وَسُرْعانَ ما أَمَرَها الْمَلِكُ «نَوْفَلٌ» بِالذَّهابِ مَعَ الْوَزِيرِ «عِمادٍ» مُزَوَدَةٌ بِنَفائِسَ مِنَ الْأَمْتِعَةِ، وَغَوالٍ مِنَ الْحُلِيِّ، حُمِلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ آلافِ بَغْلٍ.

وَما نَظَرَ الْمَلِكُ إِلَى زَوْجِهِ الْجَدِيدَةِ حَتَّى رَأَى فِى وَجْهِها جَمالًا فاتِنًا. وَلٰـكِنَهُ لَمْ يَرَ عَلَى سِيماها شَيْئًا مِنَ الْمَظاهِرِ السَّامِيَةِ الْنَّبِيلَةِ الَّتِى كانَتْ تَلُوحُ عَلَى مُحَيْا زَوْجِهِ الْمُتَوَفَّاةِ.

وَلَمْ يَقَعْ بَصَرُها عَلَى الْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ» حَتَّى نَظَرَتْ إِلَيْها نَظْرَةً شَزْراءَ، مَمْلُوءَةً بِشَراسَةٍ وَحِقْدٍ، فَلَمْ تَتَمالَكِ الطِفْلَةُ الْمِسْكِينَةُ — الَّتِى لَمْ تَتَجاوَزِ الثَّالِثَةَ مِنْ عُمْرِها — أَنْ تَفَزَّعَتْ مِنْ هٰذِهِ النَّظْرَةِ الْمُنْكَرَةِ. واشْتَدَ الْخَوْفُ بِها فَبَكَتْ. وَسَأَلَها الْمَلِكُ عَمَّا يَحْزُنُها وَيُبْكِيها، فَقالَتْ، وَهِىَ تَخْتَبِئُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ: «أَبِى.. أَبِى الْعَزِيزَ، بِرَبِّكَ لا تَتْرُكْنِى لِهٰذِهِ الْأَمِيرَةِ؛ فإِنِّي أَخافُها. وَإِنَّ نَظْرَتَها لَتُفْزِّعُنِى.»

فَدَهِشَ الْمَلِكُ مِمَّا سَمِعَ، وَنَظَرَ إِلَى «سُمَيَّةَ»؛ فَأَسْرَعَتْ إِلَى كِتْمانِ غَيْظِها، وَكَبْتِ عَواطِفِها، وتَغْيِيرِ قَسِماتِ وَجْهِها، وَتَصَنَّعَتِ الْهُدُوءَ، وَتَكَلَّفَتْ الاِبْتِسامَ.



وَلٰكِنَّ الْمَلِكَ فَطَنَ — بِرَغْمِ ذٰلِكَ — إِلَى حَقِيقَتِها؛ فَأَمَرَ بِإِبْعادِ «الشَّقْراءِ» عَنْ «سُمَيَّةَ» حَتَّى تَسْلَمَ مِنْ أَذاها. وَأَشارَ بِأَنْ تَعِيشَ «الشَّقْراءُ» فِى كَفالَةِ مُرْضِعَتِها «أَنِيسَةَ» وَمُرَبِّيَتِها «حَزامِ» فَكانَتْ كِلْتاهُما تَتَعَّهدُ الطِّفْلَةَ بِالرِّعايَةِ، وَتَحُوطُها بِالْحَنانِ والْعَطْفِ. وَلذٰلِكَ كانَتْ الْمَلِكَةُ «سُمَيَّةُ» لا تَرَى «الشَّقْراءَ» إِلَّا نادِرًا. وَكانَتْ — إِذا لَقِيَتْها مُصادَفَةً — لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْفِىَ ما تُبْطِنُهُ لَها مِنْ كَراهِيَةٍ وَحِقْدٍ.

(٤) الْأُخْتانِ

وَبَعْدَ سَنَةٍ، رُزِقَتِ الْمَلِكَةُ «سُمَيَّةُ» ٱبْنَةً سَمَّوْها «السَّمْراءَ». وَكانَتِ «السَّمْراءُ» عَلَى قِسْطٍ كَبِيرٍ مِنَ الْجَمالِ، يَزِينُها شَعْرٌ فاحِمٌ «شَدِيدُ السَّوادِ»، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ — فِى الْجَمالِ — مَبْلَغَ أُخْتِها «الشَّقْراءِ».

وَكانَتِ «السَّمْراءُ» مِثالًا لِلْحَماقَةِ والطَّيْشِ والإِنْدِفاعِ إِلَى الشَّرِّ.

وَكَأَنَّما وَرِثَتْ ذٰلِكَ عَنْ أُمِّها، كَما وَرِثَتْ عَنْها كَراهِيَةَ «الشَّقْراءِ» والْإِفْراطَ فِى بُغْضِها، فَكانَتْ تَعَضُّ أُخْتَها وَتَقْرُصُها، وَتَخْمِشُها بِأَظافِرِها، وَتَشُدُّ شَعْرَها، وَتُحَطِمُ لُعَبَها، وَتُلَوِّثُ الْغالِيَ مِنْ ثِيابِها، والْجَمِيلَ مِنْ حُلَلِها.

وَلَمْ تَكُنِ «الشَّقْراءُ» الصَّغِيرَةُ تُبْدِى التَّأَفُّفَ أَوْ تُظْهِرُ الْغَضَبَ، بَلْ كانَتْ تَلْتَمِسُ الْعُذْرَ لِأُخْتِها «السَّمْراءِ» وَتَسْأَلُ أَباها أَنْ يَصْفَحَ عَنْها، وَيَغْفِرَ لَها إِساءَتَها، لِصِغَرِ سِنِّها وَبلاهَتِها. وَلِذٰلِكَ كانَتْ مَحَبَّةُ الْمَلِكِ «لِلشَّقْراءِ» تَزْدادُ؛ فأَمَّا مَحَبَّتُهُ «لِلسَّمْراءِ» فَكانَتْ تَنْقُصُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

وَلَمَّا رَأَتِ الْمَلِكَةُ «سُمَيَّةُ» ذٰلِكَ، اشْتَدَّ حِقْدُها عَلَى الطِّفْلَةِ الْبَرِيئَةِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ.

وَلَوْلا أَنَّ الْمَلِكَ عادِلٌ حازِمٌ، وَأَنَّ «سُمَيَّةَ» تَخْشَى غَضَبَهُ، لَصَيَّرَتِ «الشَّقْراءَ» أَتْعَسَ الْأَطْفالِ جمِيعًا.

الفصل الثانى

(١) «شَرْهانُ»

وَلَمَّا بَلَغَتِ «الشَّقْراءُ» السَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِها، وَبَلَغَتْ أُخْتُها «السَّمْراءُ» الثَّالِثَةَ، أَحْضَرَ الْمَلِكُ لِلْأُولَى مَرْكَبَةً صَغِيرَةً جَمِيلَةً تُشَدُّ إِلَى نَعامَتَيْنِ، يَقُودُها خادِمٌ فِى الْعاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، يُدْعَى: «شَرْهانَ».



وَكانَ «شَرْهانُ» يُحِبُ «الشَّقْراءَ» وَيُخْلِصُ لَها، كَما تُحِبُّها خالَتُهُ الَّتِى أَرْضَعَتْها، وَما زالَتْ تُخْلِصُ لَها.

وَكانَ لا يَفْتَأُ يَتَفَنَّنُ فِى مُلاعَبَتِها وَإِدْخالِ السُّرُورِ عَلَيْها — مُنْذُ وِلادَتِها — كَما كانَتْ تَرْتاحُ إِلَى لِقائِهِ، وَتَهَشُّ لَهُ فَرْحانَةً مَسْرُورَةً، كُلَّما رَأَتْهُ.

وَلٰـكِنْ تَجَلَّتْ فِى هٰذا الْغُلامِ نَقِيصَةٌ واحِدَةٌ غَطَّتْ عَلَى سائِرِ مَزاياهُ، وَضَيَّعَتْ كُلَّ مَحاسِنِهِ. تِلْكَ: هِىَ أَنَّهُ — عَلَى طِيبَةِ قَلْبِهِ وَتَعَلُّقِهِ بِمَوْلاتِهِ الصَّغِيرَةِ — شَرِهٌ شَدِيدُ النَّهَمِ بِالْفَطائِرِ والْحَلْوَى.

وَهُوَ — لِفَرْطِ شَغَفِهِ بِها — لا يُبالِى شَيْئًا فِى سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْها.

فَلا عَجَبَ إِذا أَطْلَقُوا عَلَيْهِ — لِشِدَّةِ شَرَهِهِ وَنَهَمِهِ — لَقَبَ «شَرْهانَ».

وَكَثِيرًا ما قالَتْ لَهُ «الشَّقْراءُ» فِى أَسَفٍ شَدِيدٍ: «لَقَدْ كَمُلَتْ مَزاياكَ، يا «شَرْهانُ». لَوْلا تِلْكَ النَّقِيصَةُ الْفَظِيعَةُ الَّتِى شَوَّهَتْ فَضائِلَكَ، وأَزْعَجَتْ كُلَّ مَنْ يَعْرِفُكَ.»

فَيُقْبِلُ عَلَيْها «شَرْهانُ» يَتَرَضَّاها، وَيَعْتَذِرُ لَها، وَيَلْتَمِسُ الصَّفْحَ مِنْها، بَعْدَ أَنْ يَعِدَها بِالْإِقْلاعِ عَنْ هٰذِهِ النَّقِيصَةِ الْمُخْزِيَةِ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى سَرِقَةِ الْفَطائِرِ مِنَ الْمَطْبَخِ، وانْتِهابِ الْحَلْوَى مِنَ الْعُلَبِ.

وَطالَما عُوقِبَ «شَرْهانُ» عَلَى ذٰلِكَ: صَفْعًا بِالْأَكُفِّ، وَرَكْلًا بِالْأَقْدامِ، وَضَرْبًا بِالْعِصِيِّ، وجَلْدًا بِالسِّياطِ، فَلَمْ يَرْتَدِعْ عَنْ هٰذِهِ النَّقِيصَةِ وَلَمْ يَتُبْ.

(٢) الْغـــــابَةُ الْمَسْحُورَةُ

وَرَأَتْ «سُمَيَّةُ» أَنْ تَسْتَغِلَّ هٰذِهِ النَّقِيصَةَ، فَتَسْتَخْدِمَهُ فِى الْكَيْدِ لِتِلْكَ الْفَتاةِ؛ بِنْتِ ضَرَّتِها الْمُتَوَفَّاةِ، وَهِىَ تَعْلَمُ أَنَّ الْحَدِيقَةَ الَّتِى تَتَنَزَّهُ فِيها الْأَمِيرةُ «الشَّقْراءُ» فِى مَرْكَبَةٍ صَغِيرَةٍ تَجُرُّها نَعامَتانِ، وَيَسُوقُها حُوذِيُّها «شَرْهانُ»، تَنْتَهِى إِلَى غابَةٍ بَدِيعَةٍ واسِعَةٍ فَسِيحَةِ الْأَرْجاءِ، هِى: «غابَةُ الزَّنْبَقِ». وَإِنَّما أُطْلِقَ عَلَيْها ٱسْمُ «غابَةِ الزَّنْبَقِ»، لِأَنَّها غاصَّةٌ — طُولَ الْعامِ — بِأَزْهارِهِ الْعَطِرَةِ، وَلَيْسَ يَفْصِلُها عَنِ الْحَدِيقَةِ إِلَّا سِياجٌ مِنَ الْحَشائِشِ وَالْأَعْشابِ، لا يَصْعبُ ٱجْتِيازُهُ عَلَى مَنْ أَرادَ.

وَكانَ النَّاسُ يَتَحامَوْنَ هٰذِهِ الْغابَةَ — عَلَى قُرْبِها مِنْهمْ — لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّها مُشْتَبِهَةُ الطُّرُقاتِ، مَمْلُوءَةٌ بِالْمَخاوِفِ والْأَخْطارِ. وَلَمْ يَسْلَمْ أَحَدٌ مِنْ رُوَّادِها وَسالِكِيها، مِنَ التِّيهِ والضَّلالِ فِيها، مَهْما بَلَغَتْ مَهارَتُهُ، وَحِذْقُهُ وَبَراعَتُهُ.

وَكانَ «شَرْهانُ» يَعْرِفُ ذٰلِكَ أَصْدَقَ الْمَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّهُ طالَما سَمِعَ النَّاسَ يُحَذِّرُونَهُ تِلْكَ الْغابَةَ الْمَخُوفَةَ الْمَرْهُوبَةَ.

وَكانَ أَخْوَفَ ما يخافُونَهُ: أَنْ تَدْنُوَ «الشَّقْراءُ» مِنَ الْغابَةِ، فَتَغْفُلَ عَنْها عَيْنُ حُوذِيِّها «شرْهانَ» لَحْظَةً، فَتَحْتَوِيَها الْغابَةُ فِيمَنِ ٱحْتَوَتْهُ، وَتُهْلِكَها فِيمَن أَهْلَكَتْهُ. وَلَطالَما رَغِب الْمَلِكُ فِى أَنْ يُقِيمَ عَلَى أَطْرافِ هٰذِهِ الْغابَةِ سُورًا مُرْتَفِعَ الْبُنْيانِ، لِيُؤَمِّنَ النَّاسَ مِنْ سُلُوكِها والْمُخاطَرَةِ بِأَنْفُسِهِمْ فِيها، وَلٰكِنَّ جُهُودَهُ كُلَّها ذَهَبَتْ — فِى هٰذا السَّبِيلِ — بِغَيْرِ فائِدَةٍ؛ فَإِنَّهُمْ كانُوا لا يَفْرُغُونَ مِنْ إِقامَة جُزْءٍ مِنْ بناءِ السُّورِ — فِى الْمَساءِ، حَتَّى يَتَهَدَّمَ فِى الصَّباحِ، وتَرْفَعَ أَحْجارَهُ قُوَّةٌ سِحْرِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ، ثُمَّ تَنْقُلَها إِلَى مَكانِها ٱلْأَوَّلِ مِنَ الْجَبَلِ.

(٣) صَنادِيقُ الْحَلْوَى

كانَتْ «سُمَيَّةُ» تَعْلَمُ ذٰلِكَ كُلَّهُ؛ فَصَرَفَتْ جُهْدَها كُلَّهُ لِتَسْتَمِيلَ إِلَيْهَا «شَرْهانَ» وَتَكْسِبَ صَداقَتَهُ. فَلَمْ تُقَصِّرْ فِى التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَمَنْحِهِ كُلَّ ما تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ، مِنْ لذائِذِ الْفَطائِرِ والْحَلْوَى. حَتَّى إذا وَثِقَتْ مِنْ إِخْلاصِهِ لَها، وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ لَنْ يَعْصِىَ لَها أَمْرًا؛ اسْتَدْعَتْهُ إِلَيْها، وَأسرَّتْ إِلَيْهِ قَوْلَها: «ما رَأْيُكَ فِى صُنْدُوقٍ كَبِيرٍ مَمْلُوءٍ بِالْحَلْوَى، وَمِثْلِهِ مَمْلُوءٍ بِالْفَطائِرِ، وَثالِثٍ مَمْلُوءٍ بِالْجَوْزِ واللَّوْزِ الْمَخْلُوطَيْنِ بِالسُّكَّرِ؟»

فَقالَ لَها مُتَلَهِّفًا: «مَنْ لِى بِهٰذِهِ الصَّنادِيقِ الْفاخِرَةِ، يا مَوْلاتِى؟»

فَقالَتْ لَهُ مُتَخابِثَةً: «فَكَيْفَ تَقُولُ فِيمَنْ يَحْرِمُكَ هٰذِهِ الصَّنادِيقَ الْفاخِرَةَ، وَيُعْطِيها سِواكَ، لِيَهْنَأَ بِأَكْلِها!؟»

فَقالَ لَها مَدْهُوشًا: «لَوْ تَمَّ هٰذا لَهَلَكْتُ حُزْنًا. فَخَبِّرِينِى — يا سَيِّدَتِى — ماذا عَلَّى أَنْ أَعْمَلَ حَتَّى لا يَفُوتَنِى هٰذا الْغُنْمُ الْعَظِيمُ؟ إِنَّنِى لَأُفَضِّلُ الْمَوْتَ عَلَى الْحِرْمانِ.»

فَحَدَّقَتْ فِيهِ، ثُمَّ قالَتْ: «لَنْ أُكَلِّفَكَ إِلَّا شَيْئًا واحِدًا يَسِيرًا عَلَيْكَ إِنْجازُهُ.» فَقالَ لَها: «لَوْ كَلَّفْتِنِى أَنْ أَنْقُلَ الْجَبَلَ مِنْ مَكانِهِ لَما تَرَدَّدتُ فِى ذٰلِكَ.»

فَقالَتْ لَهُ باسِمَةً: «الْأَمْرُ أَيْسَرُ مِنْ ذٰلِكَ بِكَثِيرٍ. فَلَنْ أُكَلِّفَكَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ بِالْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ» قَرِيبًا مِنْ غابَةِ الزَّنْبَقِ، وَتُشَجِّعَها عَلَى تَرْكِ الْمَرْكَبَةِ، وَدُخُولِ الْغابَةِ.»

فاشْتَدَّ جَزَعُهُ، وَحاوَلَ أَنْ يَعْتَذِرَ؛ فَقالَتْ لَهُ غاضِبَةً: «ما دمْتَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْجِزَ ما أَمَرْتُكَ بِهِ، فَلَنْ تَظْفَرَ مِنْ هٰذِهِ الصنادِيقِ بِشَيْءٍ، وَلَنْ أَسْمَحَ لِأَحَدٍ أَنْ يُعْطِيكَ — مُنْذُ الْيوْمِ — شَيْئًا مِنَ الْحَلْوَى.»

فانْزَعَجَ «شَرْهانُ» حِينَ سَمِعَ وَعِيدَها، وَقالَ لَها مُسْتَعْطِفًا باكِيًا: «بِرَبِّكِ لا تَفْعَلِى. مُرِينِى بِأَىِّ شَيْءٍ آخَرَ، فَلَنْ أَتَرَدَّدَ فِى تَنْفِيذِهِ أَبَدًا.»

فَقالَتْ لَهُ مُنْذِرَةً مُتَوَعِّدَةً: «لَيْسَ لِى مَطْلَبٌ غَيْرُ هٰذا.»

فَقالَ لَها «شَرْهانُ»، وَقدِ امْتُقِعَ وَجْهُهُ: «إِنَ الْأَمِيرَةَ إِذا دَخَلَتْ غابَةَ الزَّنْبَقِ هَلَكَتْ، وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْها أَبَدًا.»

فَقالَتْ لَهُ: «أَقُولُ لَكَ — آخِرَ الْأَمْر — مَرَّةً ثالِثَةً: أَتُرِيدُ أَنْ تَصْحَبَ «الشَّقْراءَ» إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ؟»

فَقالَ لَها مُرْتَبِكًا مُتَحَيِّرًا: «فَكَيْفَ أَنْجُو مِنْ عِقابِ الْمَلِكِ وَقِصاصِهِ؟»

فَقالَتْ «سُمَيَّةُ»: «لا عَلَيْكَ — يا «شَرْهانُ» — فَلَنْ يُصِيبَكَ سُوءُ، وَلَنْ يَلْحَقَكَ أَذًى. ارْجِعْ إِلَيَّ — فِى الْحالِ — مَتَى دَخَلَتِ الْأَمِيرَةُ غابَةَ الزَّنْبَقِ؛ فَإِذا نَجَحْتَ فِى هٰذا الْمُهِمِّ، فَأَنا الْكَفِيلَةُ بِحِمايَتِكَ، وَإِرْسالِكَ إِلَى مَكانٍ أَمِينٍ.» فَقالَ لَها ضارِعًا مُتَذَلِّلًا: «رُحْماكِ يا مَوْلاتِى، وَلا تَدْفَعِنَّ بِى إِلَى إِهْلاكِ أَمِيرَتِى الصغِيرَةِ؛ فَإِنَّها طالَما أَحْسَنَتْ إِلَيَّ، وَما أَذْكُرُ لَها إِساءَةً واحِدَةً قَطُّ.»

فَأَجابَتْهُ «سُمَيَّةُ»: «أَمُتَرَدِّدٌ أَنْتَ فِى هٰذِهِ الصَّفْقَةِ الرَّابِحَةِ، أَيُّها الْغَبِىُّ الْأَبْلَهُ؟ وَماذا يَهُمُّكَ مِنْ أَمْرِ «الشَّقْراءِ»؟ أَأُخْتُكَ هِىَ؟ أَمْ إِحْدَى قَرِيباتِكَ؟ وَماذا عَلَيْكَ أَنْ تَعِيشَ هِىَ أَوْ تَمُوتَ؟ اِذْهَبْ فَأَنْجِزْ ما أَمَرْتُكَ بِهِ. إِذْهَبْ وأنا ضَمِينَةٌ لَكَ بِمُضاعَفَةِ ما عَوَّدْتُكَ إِيَّاهُ مِنَ الْفَطائِرِ وَالحَلْوَى. وَسَأَجْعَلُكَ خادِمًا لِلْأَمِيرَةِ «السَّمْراءِ» مَتَّى كُتِبَ لَكَ النَّجاحُ.»

فَوَقَفَ «شَرْهانُ» بُرْهَةً حائِرًا، يُقَدِمُّ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى.

وَقَضَى يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ ساهِرًا؛ فَحِينًا يَتَهَيَّبُ الْإِقْدامَ عَلَى تِلْكَ الْجَرِيمَةِ الشَّنْعاءِ، وَحِينًا يَدْفَعُهُ إِلَيْها حِرْصُهُ عَلَى الْحَلْوَى وَخَوْفُهُ مِنْ ضَياعِها إِذا رَفَضَ.

ثُمَّ قَدَّرَ فِى نَفْسِهِ أَنَّ أَمِيرَتَهُ قَدْ تَنْجُو مِنْ أَخْطارِ الْغابَةِ وَلا يُصِيبُها أَذًى؛ فَكانَ ذٰلِكَ الْأَمَلُ فِى نَجاتِها يُهَوِّنُ عَلَيْهِ فَظاعَةَ جُرْمِهِ.

وَراحَ يُقْنِعُ نَفْسَهُ الْغادِرَةَ بِأَنَّ الْأَمِيرَةَ لَنْ تَعْدَمَ نَصِيرًا مِنْ جِنِّيَّاتِ الْغابَةِ الْعارِفاتِ بِمَزاياها، الْمُعْجَباتِ بِفَضائِلِها، الْقادِراتِ عَلَى إِنْقاذِها مِنْ وَرْطَتِها، وَتَخْلِيصِها مِنْ حَيْرَتِها.

وَهٰكَذا زَيَّنَ لَهُ الطَّمَعُ أَنْ يَغْدِرَ بِمَوْلاتِهِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ ما أَضْمَرَه مِنْ أَذِيَّةٍ وَشَرٍ.

(٤) حِوارُ الْأَمِيرَةِ

فَلَمَّا جاءَ الْغَدُ، اسْتَقَلَّتِ الْأَمِيرَةُ مَرْكَبَتَها بَعْدَ أَنْ حَيَّتْ أَباها، مُسْتَأْذِنَةً إِيَّاهُ فِى التَّنَزُّهِ، عَلَى أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ بَعْدَ ساعَتَيْنِ.

وَكانَتِ الْحَدِيقَةُ الْمَلَكِيَّةُ كَبِيرَةً مُتَرامِيَةَ الْأَطْرافِ.

وَقَدِ اتَّجَهَ «شَرْهانُ» — أَوَّلَ ما اتَّجَهَ بِالْمَرْكَبَةِ — فِى طَرِيقٍ لا يَصِلُ سالِكُها إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ، حَتَّى إِذا بَعُدَ عَنِ الْقَصْرِ حَوَّلَ سَيْرَها صَوْبَ الْغابَةِ. وَقَدْ ثَقُلَتِ الْجَرِيمَةَ عَلَى قَلْبِهِ وَضَمِيرِهِ، فَجَلَسَ فِى الْمَرْكَبَةِ واجِمًا، حَزِينَ الْقَلْبِ مَهْمُومًا.

فَقالَتْ لَهُ «الشَّقْراءُ»: «ماذا بِكَ، يا «شَرْهانُ»؟ ما بالُكَ صامِتًا مُسْتَسْلِمًا لِلْهُمُومِ؟ أَتُراكَ مَرِيضًا؟»

فَقالَ لَها مُتَأَلِّمًا: «كَلَّا — أَيَّتُها الْأَمِيرَةُ — لَسْتُ بِمَرِيضٍ، بَلْ أَنا صَحِيحٌ مُعافًى، لا أَشْعُرُ بِأَىِّ أَلَمٍ جُسْمانِىٍّ.»

فَقالَتْ لَهُ مُتَعَجِّبَةً: «فَماذا بِكَ، أَيُّها الْمِسْكِينُ؟ وَما بالُكَ مُمْتَقَعَ الْوَجْهِ؟ حَدِّثْنِى بِحَقِيقَةِ أَلَمِكَ، وَلا تَخْشَ شَيْئًا؛ فَإِنِّى باذِلَةٌ جُهْدِى لِإِسْعادِكَ وَكَشْفِ غُمَّتِكَ.»

فَكادَ قَلْبُ «شَرْهانَ» يَنْفَطِرُ حُزْنًا وَأَسَفًا إِزاءَ هٰذا الْعَطْفِ النَّبِيلِ، وَكادَ يَعْدِلُ عَنْ جَرِيمَتِهِ. وَلٰكِنَّ خَوْفَهُ أَنْ يُحْرَمَ الْحَلْوَى الَّتِى وَعَدَتْهُ بِها مَوْلاتُهُ، أَخْمَدَ فِى نَفْسِهِ رُوحَ الْخَيْرِ.

وَإِنَّهُ لَغارِقٌ فِى تَرَدُّدِهِ، مُسْتَسْلِمٌ لِحَيْرَتِهِ، إِذْ بَلَغَتِ النَّعامَتانِ حاجِزَ الْغابَةِ، وَوَقَفَتا بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِها. فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «ياللهِ! ما أَجْمَلَ هٰذِهِ الزَّنْبَقَةَ! وَما أَطْيَبَ رائِحَتَها! شَدَّ ما يَبْهَجُنِى أَنْ أَجْمَعَ طاقَةً كَبِيرَةً مِنَ الزَّنْبَقِ الْبَدِيعِ، لِأُهْدِيَها إِلَى والِدِىَ العَزِيزِ. بِرَبِّكَ — يا «شَرْهانُ» — إِلا ما أَسْرَعْتَ بِإِحْضارِ هٰذِهِ الطَّاقَةِ!»

فَقالَ لَها واجِمًا: «كَلاَّ، لا أَسْتَطِيعُ النُّزُولَ — يا أَمِيرَةُ — فَرُبَّما مَشَتِ النَّعامَتان بِالْمَرْكَبَةِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لا عَلَيْكَ مِنْ ذلِكَ، يا «شَرْهانُ». فَما أَيْسَرَ أَنْ أَعُودَ بِالْمَرْكَبَةِ وَحْدِى إِلَى الْقَصْرِ.»

فَقالَ «شَرْهانُ»: «لَوْ تَسَمَّحْتُ فِى ذٰلِكِ لَعَنَّفَنِى الْمَلِكُ أَشَدَّ تَعْنِيفٍ عَلَى تَرْكِى إِيَّاكِ وَحِيدَةً. فاذْهَبِى بِنَفْسِكِ — إِذا شِئْتِ — لِتَتَخَيَّرِى ما يَحْلُو لَكِ مِنْ أَزْهارٍ». فَقَفَزَتِ «الشَّقْراءُ» مِنْ الْمَرْكَبَةِ فِى الْحالِ.

(٥) نَجاحُ الْمُؤَامَرَةِ

وَما اجْتازَتِ «الشَّقْراءُ» قَوائِمَ الْحاجِزِ حَتَّى انْدَفَعَتْ إِلَى أَزْهارِ الزَّنْبَقِ تَقْطِفُ مِنْها ما تَشاءُ.

وَسَرَتِ الرَّعْشَةُ فِى جِسْمِ «شَرْهانَ» فِى تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَداخَلَ قَلْبَهُ الْوَخْزُ والتَّأْنِيبُ. وَأَرادَ أَنْ يَتَلافَى خَطِيئَتَهُ؛ فَأَسْرَعَ إِلَيْها يُنادِيها، ولٰـكِنَّها — وَهِىَ عَلَى مَسافَةِ خُطُواتٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُ — لَمْ تَسْمَعْ صَيَحاتِهِ الْعالِيَةَ، كَأَنَما أُصِيبَتْ بِالصَّمَمِ. وَظَلَّتْ تَتَقَدَّمُ فِى سَيْرِها قَلِيلًا قَلِيلًا؛ وَرَآها — مُدَّةً طَوِيلَةً — تَقْطِفُ الزَّنْبَقَ، ثُمَّ غابَتْ عَنْ عَيْنَيْهِ.

فَغَلَبَهُ الْبُكاءُ حِينَ تَمَثَّلَتْ لَهُ شَناعَةُ جُرْمِهِ، وراحَ يَلْعَنُ الشَّرَهَ والْحِرْصَ، وَيَحْقِدُ عَلَى «سُمَيَّةَ» الَّتِى أَغْرَتْهُ بِاقْتِرافِ هٰذا الْجُرْمِ الْفَظِيعِ.

وَلَمَّا حانَ الْوَقْتُ الَّذِى تَعُودُ «الشَّقْراءُ» فِيهِ إِلَى الْقَصْرِ، لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الرُّجُوعِ بِمُفْرَدِهِ. فَدَخَلَ الإِصْطَبْلَ مِنَ الْبابِ الْخَلْفِىِّ، وأَسْرَعَ إِلَى لِقاءِ الْمَلِكَةِ. وَكانَتْ تَرْقُبُهُ وَهِىَ عَلَى أَحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ؛ فَلَمَّا رَأَتْهُ مُمْتَقَعَ الْوَجْهِ، زائِغَ الْبَصَرِ، وَقَدِ ٱحْمَرَّتْ عَيْناهُ مِنَ الدُّمُوعِ؛ عَرَفَتْ أَنَّ «الشَّقْراءَ» قَدْ فُقِدَتْ.

فَسَأَلَتْهُ مُتَلَهِّفَةً: «لَعَلَّكَ أَنْجَزْتَ الْوَعْدَ؟»

فَاكْتَفَى بِهَزْ رأْسِهِ، عَجْزًا عَنِ الْكَلامِ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ إِلَى نَجاحِ كَيْدِها، أَحْضَرَتْ لَهُ ما وَعَدَتْهُ بِهِ مِنْ صَنادِيقِ الْحَلْوَى. ثُمَّ أَمَرَتْ بَعْضَ خَدَمِها أَنْ يَحْمِلَ الصَّنادِيقَ عَلَى بَغْلٍ مِنْ بِغال أَبِيها الَّتِى حُمِلَتْ عَلَيْها نَفائِسها وَحُلِّيها. ثُمَ أَهْدَتْ إِلَيْهِ نَفائِسَ مِنَ السَّبائِكِ الذَّهَبِيَّةِ، وَبَعَثَتْ بِرِسالَةٍ مَعَهُ إِلَى أَبِيها تُوصِيهِ بِهِ خَيْرًا.

ثُمَّ أَمَرَتْ «شَرْهانَ» أَنْ يَعُودَ إِلَيْها بَعْدَ شَهْرَيْنِ، لِتُعْطِيَهُ نَفَائِسَ أُخْرَى مِنْ هَدايَاها وَحَلْواها.

(٦) عِقـــــــابُ الْحِرْصِ

فَرَكِبَ ظَهْرَ الْبَغْلِ، وَراحَ يَحُثُّه عَلَى الْإِسْراعِ فِى عَدْوِهِ. وَلٰـــكِنْ سُرْعانَ ما أَعْجَزَ الْبَغْلَ ثِقْلُ ما يَحْمِلُ؛ فَحَرَنَ وَظَلَّ يَقْفِزُ قَفَزاتٍ عَنِيفَةً.

وَكان «شَرْهانُ» لا يُحْسِنُ رُكُوبَ جَوادٍ وَلا بَغْل؛ فَلَمْ يَتَمالَكْ أَنْ سَقَطَ عَلَى صَخْرَةٍ، عاتِيَةٍ، وَسَقَطَتْ مَعَهُ الْأَحْمالُ؛ فَتَحَطَّمَ رَأْسُهُ، وماتَ عَلَى الْفَورِ؛ بَعْدَ أَنْ خَسِرَ مُكافَأَتَهُ، وَشَرَفَهُ وَحَياتَه!

الفصل الثالث

(١) فِى غابَةِ الزَّنْبَقِ

لَمْ تَدْخُلِ «الشَّقْراءُ» الْغابَةَ حَتَّى شُغِلَتْ بِقَطْفِ أَزْهارِ الزَّنْبَقِ، وَقَدْ جَمَعَتْ مِنْها الْكَثِيرَ. وَمَضَى عَلَى «الشَّقْراءِ» أَكْثَرُ مِنْ ساعَةٍ وَهِىَ مُنْصَرِفَةٌ إِلَى ذٰلِكَ؛ فَحَلَّ بِها التَّعَبُ؛ وَآلَمَتْها حَرارَةُ الشَّمْسِ، وَثَقُلَ عَلَيْها ما حَمَلَتْهُ مِنْ طاقاتِ الزَّنْبَقِ. وَرَأَتْ أَنَّها قَدْ تَأَخَّرَتْ عَنِ الْمَوْعِدِ الَّذِى أَلِفَتْ أَنْ تَعُودَ فِيهِ إِلَى الْقَصْرِ؛ فَنادَتْ «شَرْهانَ» — وَهِىَ تَحْسَبُهُ مِنْها قَرِيبًا — فَلَمْ يُجِبْها أَحَدٌ. فَقالَتْ لِنَفْسِها: «يُخَيَّلُ إِلَىَّ أَنَّنِى قَدْ أَوْغَلْتُ فِى الْغابَةِ، وَساقَتْنِى فِيها قَدَماىَ إِلَى أَبْعَدَ مِمَّا ظَنَنْتُ: فَلْأُبادِرْ بِالْعَوْدَةِ — بِرَغْمِ ما حَلَّ بِى مِنَ التَّعَبِ — حَتَّى لا يَطُولَ انْتِظارُ «شَرْهانَ» الْمِسْكِينِ.»

وَسارَتِ «الشَّقْراءُ» حَتَّى جَهَدَها السَّيْرُ، دُونَ أَنْ تُبْصِرَ نِهايَةَ الْغابَةِ.

(٢) حُزْنُ «الشَّقْراءِ»

فَراحَتْ تُنادِى «شَرْهانَ» نِداءً مُتَصِلًا مُتَتابِعًا؛ فَلَمْ يُجِبْها أَحَدٌ. وَأَخِيرًا دَبَّ إِلَى قَلْبِها الْخَوْفُ، فَقالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها: «تُرَى كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرِى، بَعْدَ أَنْ تِهْتُ فِى هذِهِ الْغابَةِ، وَأَصْبَحْتُ وَحِيدَةً لا رائِدَ لِى وَلا مُعِينَ؟ تُرَى ماذا يَقُولُ أَبِى وَقَدْ حانَ مَوْعِدُ عَوْدَتِى فَلَمْ أَعُدْ؟ وَماذا يَصْنَعُ «شَرْهانُ»؟ وَكَيْفَ يَعُودُ الْمِسْكِينُ إِلَى الْقَصْرِ وَحِيدًا وَلَسْتُ مَعَهُ؟ لَطَفَ اللهُ بِكَ «يا شَرْهانُ». شَدَّ ما أَسَأْتُ إِلَيْكَ إِذْ عَرَّضْتُكَ لِتَعْنِيفِ أَبِى وَتَأْنِيبِهِ، وَلَوْمِهِ وَتَأْدِيبِهِ. وَأَخْشَى ما أَخْشاهُ أَنْ يَضْرِبَكَ عَلَى ذَنْبٍ لَمْ تَجْنِهِ، وَيُعاقِبَكَ

عَلَى جُرْمٍ لا يَدَ لَكَ فِيهِ. أَلا لَيْتَهُ يَعْرِفُ أَنَنِى — أَنا وَحْدِىَ — الْمُذْنِبَةُ. وَما أَدْرِى كَيْفَ أَتَلافَى هٰذا الْخَطَأَ؟ وَأَحْسَبُنِى سَأَمُوتُ اللَّيْلَةَ — فِى هٰذِهِ الْغابَةِ — عَطَشًا وَجُوعًا، إِذا نَجَوْتُ مِنْ ذِئابِها الضَّارِيَةِ وَضِباعِها، وَنُمُورِها الْمُفْتَرِسَةِ وَسِباعِها.»

وَعَجزَتِ الْأَمِيرَةُ عَنْ مُواصَلَةِ السَّيْرِ؛ فَجَلَسَتْ تَنْدُبُ حَظَّها، إِلَى أَنْ غَلَبَها الْإِعْياءُ والتَّعَبُ، فَأَسْنَدَتْ رَأْسَها إِلَى طاقاتِ الزَّنْبَقِ الَّتِى قَطَفَتْها.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ اسْتَسْلَمَتْ لِرُقادٍ طَوِيلٍ.

الفصل الرابع

(١) يَقَظَةُ الْأَمِيرَةِ

نامَتِ «الشَّقْراءُ» طُولَ اللَّيْلِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَذاها كائِنٌ كانَ، مِنْ سِباعِ الطَّيْرِ والْحَيَوانِ، وَعَفارِيتِ الإِنْسِ والْجانِّ. واسْتَيْقَظَتْ فِي الضُّحَى، وَفَرَكَتْ عَيْنَيْها.

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِها حِينَ رَأَتْ أَشْجارَ الْغابَةِ تُحِيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ.



وَتَلَفَّتَتْ حائِرَةً، فإذا هِىَ بَعِيدَةٌ عَنْ حُجْرَتِها الَّتِى أَلِفَتْ أَنْ تَبِيتَ فِيها. واشْتَدَّتْ بِها الْحَيْرَةُ؛ فَصَرَخَتْ تُنادِى مُرَبِّيَتَها، فَسَمِعَتْ مُواءً لَطِيفًا بِالْقُرْبِ مِنْها.

(٢) أَبُو «خِداشٍ»

وَنَظَرَتْ فإذا قِطٌّ بَدِيعٌ جالِسٌ عِنْدَ قَدَمَيْها، يَنْظُرُ إِلَيْها مُتَوَدِّدًا مُتَعَطِّفا. وَكانَ بَياضُ شَعْرِهِ الْجَمِيلِ فِى مِثْلِ نَصاعَةِ الثَّلْجِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ فِى عَيْنَيْهِ نَظَراتُ الْعَطْفِ والْإِشْفاقِ، وانْبَعَثَ مِنْ مُوائِهِ صَوْتُ الْحَفاوَةِ والِاشْتِياقِ. فاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ، وَرَبَّتَتْ ظَهْرَهُ، وَأَمَرَّتْ يَدَها مُتَرَفِّقَةً عَلَيْهِ، ثُمَّ قالَتْ لَهُ: «ما أَجْمَلَكَ، يا «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ! شَدَّ ما أَنا مَسْرُورَةٌ بِرُؤْيَتِكَ. فَهَلْ أَجِدُ فِيكَ مُرْشِدًا يهْدِينِى سَبِيلَ العَوْدَةِ إِلَى بَيْتِى؟ عَلَى أَنَّنِى — وا أَسَفاهُ — جائِعَةٌ، وَلَمْ يَبْقَ لِى قُوَّةٌ عَلَى السَّيْرِ قَبْلَ أَنْ آكُلَ.»

(٣) مائِدَةُ الْقِطِّ

وَما انْتَهَتْ مِنْ هٰذِهِ الْكَلِماتِ، حَتَّى أَخَذَ السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ يَمُوءُ مُواءً لَطِيفًا، وَيُشِيرُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ إِلَى رَيْطَةٍ (مُلاءَةٍ) مِنَ النَّسِيجِ الْأَبْيَضِ الرَّقِيقِ، مَلْفُوفَةٍ بِإِحْكامٍ إِلَى جانِبِها. فَلَمَّا فَتَحَتْها وَجَدَتْ فِيها شَطائِرَ لَذِيذَةً مِنَ الْخُبْزِ والزُّبْدِ. فَقَضَمَتْ واحِدَةً مِنْها، فَأَلْفَتْها سائِغَةً لَذِيذَةَ الطَّعْمِ. فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَنْفَرِدَ بِها، وَأَبَتْ إِلا أَنْ تَشْرَكَ مَعَها السِّنَّوْرَ فِى أَكْلِها، فَقاسَمَتْهُ إِيَّاها.

وَلَمَّا انْتَهَيا مِنَ الطَّعامِ، أَقْبَلَتْ عَلَى السِّنَّوْرِ حانِيَةً قائِلَةً: «أَلْفُ شُكْرٍ لَكَ عَلَى ما قَدَّمْتَهُ لِىَ مِنْ فَطُورٍ شَهِيٍ. يا «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ. فَهَلْ أَجِدُ فِيكَ مُعِينًا يَهْدِينِى إِلَى بَيْتِ أَبِى؟»

فَهَزَّ السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ رَأْسَهُ مَحْزُونًا وَهُوَ يَمُوءُ فِى حَسْرَةٍ وَأَلَمٍ.

فَقَالَتِ «الشَّقْراءُ»: «ما دُمْتَ قَدْ فَهِمْتَ ما أَقُولُ، فَلا تَتَرَدَّدْ فِى الذَّهابِ مَعِى إِلَى الْمَنْزِلِ، رَحْمَةً بِى، وَبِرًّا بِأَبِى.»

فَنَظَرَ إِلَيْها «أَبُو خِداشٍ» وَهَزَّ رَأْسَهُ الْأَبْيَضَ هِزَّةً عَرَفَتْ مِنْها أَنَّهُ قَدْ فَهِمَ حَدِيثَها. ثُمَّ وَقَفَ السِّنَّوْرُ لَحْظَةً، وَمَشَى عِدَّةَ خُطُواتٍ.

ثُمَ الْتَفَتَ إِلَى الْخَلْفِ، لِيَرَى هَلْ فَهِمَتِ «الشَّقْراءُ» ما عَناهُ بِإِشارَتِهِ، وَهَلْ تَبِعَتْهُ واقْتَفَتْ أَثَرَهُ.

فَقالَتْ لَهُ: «شُكْرًا لَكَ، يا «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ. هٰأَنَذِى مُقْتَفِيَةٌ خُطُواتِكَ، مُهْتَدِيَةٌ بِهَدْيِكَ، وَإِنْ كُنْتُ لا أَدْرِى: كَيْفَ نَسْتَطِيعُ ٱخْتِراقَ هٰذِهِ الْأَشْجارِ الْمُلْتَفَّةِ، وَلَيْسَ فِيها مَنْفَذٌ كَما تَرَى؟»

فَطَمْأَنَها السِّنَّوْرُ بِإِشارَةٍ لَمْ يَخْفَ عَلَيْها مَعْناها. ثُمَ انْدَفَعَ بَيْنَ الْأَعْشاب الْمُلْتَفَّةِ والْأَشْجارِ الْمُشْتَبِكَةِ؛ فانْفَرَجَتْ — مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها — لِتُفْسِحَ الطَّرِيقَ للسِّنَّوْرِ وَضَيْفِهِ، وَما اجْتازا الأَعْشابَ حَتَّى تَشابَكَتْ خَلْفَهُما كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ. وَكانا كُلَّما تَقَدَّما فِى سَيْرِهِما زادَتِ الْغابَةُ وُضُوحًا وَضَوْءًا، وَرَقَّتِ الْحَشائِشُ، وَتَعَطَّرَ الزَّهْرُ، وَغَرَّدَ الطَّيْرُ، واسْتَوْلَى الْمَرَحُ عَلَى السَّناجِيبِ، فَراحَتْ تَتَسَلَّقُ الْغُصُونَ مُبْتَهِجَةً ناشِطَةً.

وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُ «الشَّقْراءِ» سُرُورًا بِما رأَتْ، وأَيْقَنَتْ أَنَّ بَقاءَها فِى الْغابَةِ لَنْ يَطُولَ، وَأَنَّها عَلَى وَشْكِ أَنْ تَنْعَمَ بِلِقاءِ أَبِيها. فَنَسِيَتْ هُمُومَها، وَشَغَلَها جَمالُ الْأَزْهارِ

عَنْ آلامِها؛ فَوَقَفَتْ — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — لِتَقْطِفَ مِنْ بَدائعِ الزَّهْرِ ما يَحْلُو لَها أَن تَقْطِفَهُ.

وَكانَ «أَبُو خِداشٍ» يُتابِعُ مُواءَهُ يَسْتَحِثُّها عَلَى السَّيْرِ قُدُمًا، وَيَتَعَجَّلُها كُلَّما أَبْطَأَتْ.

(٤) قَصْرُ الْغِزْلانِ

وَلَمْ تَنْقَضِ عَلَيْهِما ساعَةٌ حَتَّى بَلَغا قَصْرًا عَظِيمًا مَكْتُوبًا عَلَى بابِهِ: «قَصْرُ الْغِزْلانِ»؛ فَوَقَفَتِ «الشَّقْراءُ» أَمامَ سُورِهِ الذَّهَبِيِّ، وَهِيَ لا تَدْرِي: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى الدُّخُولِ، وَلَيْسَ بِالْقَصْرِ حَرَسٌ، وَلا جَرَسٌ، والْحاجِزُ الْخارِجِيُّ مُقْفَلٌ؟

وَهُنا اسْتَخْفَى السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ، وَبَقِيَتِ «الشَّقْراءُ» وَحْدَها أَمامَ بابِ الْقَصْرِ مُنْفَرِدَةً.

الفصل الخامس

(١) غِزْلانُ الْغابَةِ



وَدَخَلَ السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ مِنْ مَمَرٍّ صَغِيرٍ، لَعَلَّهُ صُنِعَ لِأَجْلِهِ وَحْدَهُ. وَلَعَلَّ السِّنَّوْرَ قَدْ أَبْلَغَ حارِساتِ الْقَصْرِ — مِنَ الْغِزْلانِ — أَنَّ ضَيْفًا جَدِيدَةً قَدْ وفَدَتْ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَدْخُلِ السِّنَّوْرُ حَتَّى فُتِحَ الْحاجِزُ قَبْلَ أَنْ تُفَكِّرَ «الشَّقْراءُ» فِى نِداءِ أَحَدٍ مِنْ ساكِنِيهِ. فَدَخَلَتْ فِناءَ الْقَصْرِ مِنْ فُرْجَتِهِ، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا.

ثُمَّ فُتِحَ بابُ الْقَصْرِ — مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ — فَدَخَلَتِ «الشَّقْراءُ» سِرْدابًا مُشَيَّدًا بِالرُّخامِ الْأَبْيَضِ النَّادِرِ. ثُمَّ فُتِحَتِ الْأَبْوابُ كُلُّها مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها، فَرَأَتْ كَثِيرًا مِنَ الْقاعاتِ الْفاخِرَةِ وَالْأَفْناءِ الرَّحْبَةِ.

(٢) أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ

ثُمَ رَأَتْ — آخِرَ الْأَمْرِ — قاعَةً كَبِيرَةً، بَدِيعَةَ الْهَنْدَسَةِ، تَنْتَهِى بِمَخْدَعٍ أَزْرَقَ مُحَلًّى بِالذَّهَبِ، وَعَلَيْهِ أَمِيرَةُ غِزْلانِ الْغابَةِ، وَهِىَ وَعِلَةٌ بَيْضاءُ راقِدَةٌ عَلى سَرِيرٍ مِنَ الْحَشائِشِ الرَّقِيقَةِ الْمُعَطَّرَةِ. وَحانَتْ مِنَ «الشَّقْراءِ» الْتِفاتَةٌ، فَرَأَتْ «أَبا خِداشٍ» جاثِمًا بِالْقُرْبِ مِنْها.

وَلَمْ تَرَ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ الْأَمِيرَةَ «الشَّقْراءَ» مُقْبِلَةً عَلَيْها، حَتَّى وَقَفَتْ لِتَحِيَّتِها، واسْتَقْبَلَتْها مُبْتَهِجَةً بِمَقْدَمِها، قائِلَةً بِلِسانٍ فَصِيحٍ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا بِالْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ» بِنْتِ الْمَلِيكِ الْعَظِيمِ: «حَبِّ الرُّمَّانِ». أَلا تَعْلَمِينَ أَنَّ وَلَدِى «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ يَنْتَظِرُ قُدُومَكِ بِفارِغِ الصَّبْرِ، مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ؟»

وَلَمَّا رَأَتِ «الشَّقْراءَ» مُتَرَدِّدَةً يَبْدُو عَلَى سِيماها الْخَوْفُ، قالَتْ لَها: «كُونِى مُطْمَئِنَّةً، يا «شَقْراءُ»، فَإِنَّما أَنْتِ — هُنا — مَعَ أَصْدِقاءَ. وَأَنا أَعْرِفُ أَباكِ مُنْذُ نَشَأَ، وَقَدْ أَحْبَبْناهُ جَمِيعًا لِعَدْلِهِ وَحَزامَتِهِ، وَكَرَمِهِ وَأَرْيَحِيَّتِهِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»، وَقَدْ عادَتْ إِلَيْها الطُّمَأْنِينَةُ، وَغَمَرَتْها الدَهْشَةُ: «أَعارِفَةٌ أَنْتِ والِدِى؟ فَبِاللهِ عَلَيْكِ — يا أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ — إِلَّا ما أَسْرَعْتِ بِى إِلَيْهِ؛ لِتُخَفِّفِى مِنْ قَلَقِهِ عَلَيَّ، وَحُزْنِهِ لِفراقِى!»

(٣) ساحِرُ الْغابَةِ

فَقالَتِ الْوَعِلَةُ وَهِىَ تَتَنَهَّدُ مُتَحَسِّرَةً: «لَيْسَ فِى قُدْرَتِى — يا عَزيزَتِى «الشَّقْراءَ» — أَنْ أَرُدَّكِ إِلَى أَبيكِ الآنَ. فَإِنَّ مَنْ يَدْخُلُ هٰذِهِ الْغابَةَ يُصْبِحُ — فِى الْحالِ — تَحْتَ سُلْطانِ ساحِرِها الْغَلَّابِ الَّذى يَمْلِكُ الْأَمْرَ وَالنَّهْىَ — وَحْدَهُ — فِى غابَةِ الزَّنْبَقِ هٰذِهِ. وَما بِىَ قُدْرَةٌ عَلَى مُعارَضَتِهِ لِأَنَّ سُلْطانَهُ فَوْقَ سُلْطانِى. عَلَى أَنَّنِى أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبيكَ أَحْلامًا سارَّةً بَهِيجَةً، تُطَمْئِنُهُ عَلَيْكِ، وَتُعَرِّفُهُ أَنَّكِ عِنْدِى، وَتَمْلَأُ نَفْسَهُ ثِقَةً وَرَجاءً.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ» جازِعَةً: «وَهَلْ أَظَلُّ بَعيدَةً عَنْ أَبِى إِلَى الْأَبَدِ، لا أَنْعَمُ بِلُقْياهُ؟»

فَقالَتِ الْوَعِلَةُ: «لا حاجَةَ بِنا إِلَى التَّكَهُّنِ بِالْمُسْتَقْبَلِ؛ فَهُوَ غَيْبٌ لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، سُبْحانَهُ. عَلَى أَنَّ لِلْحِكْمَةِ والرَّزانَةِ والِاجْتِهادِ دائِمًا عاقِبَةً مَحْمُودَةً. فَلا يَدْخُلَنَّ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِكِ، وَلا بُدَّ مِنَ الْإِذْعانِ لِقَضاءِ اللهِ. فاعْتَصِمى بِفَضائِلِكِ وَمَزاياكِ النَّبِيلَةِ حَتَّى يَأْتِى الْفَرَجُ.»

فَتَنَهَّدَتِ «الشَّقْراءُ» وَلَمْ تَتَمالَكْ أَنْ ذَرَفَتْ عَيْناها دَمْعَتَيْنِ، حُزْنًا عَلَى هٰذا الْمَصِيرِ. ثُمَّ اسْتَعادَتِ «الشَّقْراءُ» شَجاعَتَها، وَتَجَلَّدَتْ مُتَأَسِّيَةً، فَلَمْ تَلْبَثِ الطُّمَأْنِينَةُ أَنْ حَلَّتْ مَحَلَّ الْجَزَعِ.

وَأَقْبَلَتْ عَلَيْها أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ وابْنُها يُؤَسِّيانِها، وَيُرِيانِها الحُجْرَةَ الَّتِى أَعَدَّاها لَها فِى الْقَصْرِ، وَقَدْ فُرِشَتْ كُلُّها بِالْحَرِيرِ الْوَرْدِىِّ الْمُطَرَّزِ بِالذَّهَبِ. وَقَدْ صُنِعَ أَثاثُ الْحُجْرَةِ مِنَ الْمُخْمَلِ الْأَبْيَضِ مُوَشًّى بِأَلْوانِ الْحَرِيرِ الْمُتَأَلِّقَةِ الَّتِى تُمَثِّلُ جَمِيعَ أَنْواعِ الْحَيَوانِ والطُّيُورِ والْفَراشِ والْحَشَراتِ. وَرَأَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ حُجْرَةِ الْأَمِيرَةِ حُجْرَةً أُخْرَى، وَهِىَ مَفْرُوشَةٌ بِالدِّمَقْسِ السَّماوِىِّ اللَّوْنِ، الْمُطَرَّزِ بِاللَّآلِئِ الصَّغِيرَةِ، وَقَدْ صُنِعَ أَثاثُها مِنْ نَسِيجٍ ثَمِينٍ تَتَمَوَّجُ فِيهِ أَبْراجٌ فِضِّيَّةٌ مُثَبَّتَةٌ بِمَسامِيرَ كَبِيرَةٍ ثَمِينَةٍ. وَعُلِّقَتْ عَلَى الْجُدْرانِ صُورَتانِ بَدِيعَتانِ تُمَثِّلانِ فَتاةً جَمِيلَةً فِى مُقْتَبَلِ شَبابِها، وَفَتًى جَمِيلًا فِى مُقْتَبَلِ شَبابِهِ، وَتَدُلُّ مَلابِسُهُما عَلَى أَنَّهُما أَخَوانِ شَقِيقانِ، مِنْ سُلالَةٍ مُلُوكِيَّةٍ عَرِيقَةٍ فِى الْمُلْكِ والسُّلْطانِ. فَسَأَلَتِ «الشَّقْراءُ» أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ: «لِمَنْ هاتانِ الصُّورَتانِ، يا سَيِّدَتِى «أُمَّ عَزَّةَ»؟»

فَأَجابَتْها الْوَعِلَةُ: «مَحْظُورٌ عَلَيْنا — نَحْنُ: جَماعَةَ الْوُعُولِ والْغِزْلانِ — أَنْ نُجِيبَ عَنْ أَمْثالِ هٰذا السُّؤَالِ، وسَتَعْلَمِينَ جَوابَهُ بَعْدَ حِينٍ. وَها قَدْ حانَ وَقْتُ الْعَشاءِ. فَهَلُمِّى، يا «شَقْراءُ» إِلَى الطَّعامِ، فَما أَظُنُّكِ إِلَّا جائِعَةً.»

وَلَقَدْ صَدَقَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ؛ فَقَدْ كادَتِ «الشَّقْراءُ» حِينَئِذٍ تَمُوتُ جَوْعًا. وَذَهَبَتِ «الشَّقْراءُ» — عَلَى أَثَرِ «أُمِّ عَزَّةَ» — إِلَى حُجْرَةٍ فاخِرَةٍ، بِها مائِدَةٌ حافِلَةٌ، جُهِّزَتْ بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ. وَكانَتْ بِها وِسادَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الدِّمَقْسِ لِجُلُوسِ «أُمِّ عَزَةَ»: أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، وَطَنافِسُ وَزَرابِىُّ مَبْثُوثَةٌ «بُسُطٌ مَنْشُورَةٌ»، وَأَمامَها — عَلَى الْمائِدَةِ — طاقَةٌ مِنَ الرَّياحِينِ الْفَوَّاحَةِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْها إناءٌ مِنْ خالِصِ الذَّهَبِ مَمْلُوءٌ بِالْماءِ الْبارِدِ الْعَذْبِ. وَكانَ بِالْقُرْبِ مِنْ «أُمِّ عَزَّةَ» كُرْسِىٌّ صَغِيرٌ مرْتَفِعٌ لِجُلُوسِ «أَبِى خِداشٍ»، وَأَمامَهُ إناءٌ مُجَوَّفٌ بِهِ سَمَكٌ مَشْوِىٌ وَأَفْخاذٌ مَقْلِيَّةٌ بِالسَّمْنِ. وَإِلَى جانِبِهِ إِناءٌ — مِنْ بِلَّوْرٍ — مَتِينٌ مَمْلُوءٌ بِاللَّبَنِ الْحَلِيبِ. وَرَأَتِ الْأَمِيرَةُ كُرْسِيَّها بَيْنَ مَقْعَدَىْ «أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ» وابْنِها، وَقَدْ أُعِدَّ لِلسِّنَّوْرِ «أَبِى خِداشٍ» — عَلَى الْمائِدَةِ — كُرْسِىٌّ صَغِيرٌ مِنَ الْعاجِ، عَلَيْهِ بَدائِعُ مِنَ النَّقْشِ. وامْتَلَأَتِ الصَّحْفَةُ بِحَساءٍ لَذِيذٍ، وَإِلَى جِوارِها كُوبٌ ثَمِينٌ، وَإِناءٌ بَدِيعُ الصُّنْعِ مَمْلُوءٌ بِالْماءِ، وَكِلاهُما مِنَ الْبِلَّوْرِ الصَّخْرِىِّ النَّفِيسِ، وَإِلَى جانِبِ ذٰلِكَ ما شِئْتَ مِنْ لَذِيذِ الْأَطْعِمَةِ. وَرَأَتْ مِلْعَقَةً وَشَوْكَةً مِنَ الذَّهَبِ، وَمِنْشَفَةً مِنَ النَّسِيجِ الرَّقِيقِ الثَّمِينِ، لَمْ تَرَ لَها — فِى قَصْرِ أَبِيها — مَثِيلًا قَطُّ.

وَكانَ يَقُومُ عَلَى خِدْمَةِ الْمائِدةِ سِرْبٌ رائِعُ الْجَمالِ مِنْ غِزْلانِ الْغابَةِ فِى مَهارَةٍ فائِقَةٍ، يُبادِرُ إِلَى خِدْمَةِ «الشَّقْراءِ»، وَيُسْرِعُ إِلَى تَلْبِيَةِ إِشارَتِها. وَقَدِ احْتَوَتِ الْمائِدَةُ — إِلَى ذٰلِكَ — أَشْهٰى ما يَشْتَهِى الآكِلُونَ مِنْ لَحْمٍ وَطَيْرٍ وَسَمَكٍ وَفَطائِرَ وَحَلْوَى وَفالُوذَجٍ وَلَطائِفَ مَحْشُوَّةٍ بِالْجَوْزِ واللَّوْزِ والسُّكَّرِ الْمادِىِّ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنْ لَذائِذِ الْأَطْعِمَةِ الْمُرْتَقِياتِ.

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» جائِعَةً؛ فَأَكَلَتْ مَعَ «أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ» وَوَلَدِها ما شاءَتْ مِنْ هٰذِهِ الْمائِدَةِ الدَّسِمَةِ! حَتَّى إِذا فَرَغَتْ مِنْ تَناوُلِ الْعَشاءِ صَحِبَتْها «أُمُّ عَزَّةَ» و«أَبُو خِداشٍ» إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ. فَرَأَتْ فِيها — مِنَ الْفاكِهَةِ النَّاضِجَةِ، والْمُتَنَزَّهاتِ الْبَدِيعَةِ — ما

لا عَهْدَ لَها بِمِثْلِهِ فِى قَصْرِ أَبِيها وَحَدِيقَتِهِ. فَلَمَّا أَتَمَّتْ نُزْهَتَها، عادَتْ مَعَ صَدِيقَيْها الْجَدِيدَيْنِ.

وَكانَ التَّعَبُ قَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَيْها — حِنَئِذٍ — فَأَشارَتْ عَلَيْها أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى مَخْدَعِها لِتَنامَ. فَلَبَّتِ ٱقْتِراحَها مَسْرُورَةً.

وَما دَخَلَتْ حُجْرَةَ نَوْمِها حَتَّى وَجَدَتْ فِيها غَزالَتَيْنِ — مِنْ غِزْلانِ الْغابَةِ — تَسْتَقْبِلانِها مُتَأَهِّبَتَيْنِ لِخِدْمَتِها. وَقَدْ أَسْرَعَتا إِلَى ثِيابِها فَنَزَعَتاها — فِى مَهارَةٍ — ثُمَّ سَهِرَتا إِلَى جِوارِ سَرِيرِها، تَرْعَيانِها وَتُلَبِّيانِ كُلَّ ما تَأْمُرُهُما بِهِ.

ثُمَّ أَغْمَضَتِ «الشَّقْراءُ» عَيْنَيْها دُونَ أَنْ تُلْهِيَها تِلْكَ الْمَناظِرُ الرَّائِعَةُ وَالْأَمْتِعَةُ النَّفِيسَةُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِى أَبِيها، مُتَحَسِّرَةً مُتَأَلِّمَةً تَرْجُو لِقاءَهُ.

الفصل السادس

(١) الصَّحْوَةُ الثَّانِيَةُ

وَلَمْ تَلْبَثِ «الشَّقْراءُ» أَنِ ٱسْتَسْلَمَتْ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ وَجَدَتْ نَفْسَها غَيْرَ ما كانَتْ بِالْأَمْسِ. لَقَدْ أَصْبَحَتْ خَلْقًا آخَرَ. فَقَدْ نَما جِسْمُها وَعَقْلُها نُمُوًّا عَجِيبًا، واتَّسَعَتْ آفاقُ تَفْكِيرِها، وأَلَمَّتْ بِطَرائِفَ مِنَ الْعُلومِ والْفُنُونِ، عَرَفَتْها — فِيما قَرَأَتْهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَلُقِّنَتْهُ مِنَ الدُّرُوسِ — وَهِىَ نائِمَةٌ.

وَلَمَّا اسْتَعادَتْ أَحْلامَها اللَّذِيذَةَ ذَكَرَتْ أَنَّها قَضَتْ وَقْتَ نَوْمِها كُلَّهُ فِى الْقراءَةِ والْكِتابَةِ والرَّسْمِ ودَرْسِ الْمُوسِيقَى والْعَزْفِ عَلَى «الْبِيانِ» والنَّاىِ والْعُودِ وَما إِلَيْها.

وَلَعَلَّ أَعْجَبَ ما عَجِبَتْ مِنْهُ أَنَّها لَمْ تَنْسَ مِماَّ تَعَلَّمَتْهُ فِى نَوْمِها شَيْئًا. وَأَرادَتْ أَنْ تُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِها قَلِيلًا، فَنَهَضَتْ مِنْ سَرِيرِها.

وَما رَأَتْ صُورَتَها فِى الْمِرْآةِ حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّها قَدْ أَصْبَحَتْ أَكْبَرَ حَجْمًا، وَأَرْشَقَ جِسْمًا، وَقَدْ زادَتْ حُسْنًا وَبَهاءً، وَتَأَلَّقَتْ عَيْناها الزَّرْقاوَانِ، وَتَوَرَّدَتْ بَشَرَتُها النَّاصِعَةُ، وَطالَ شَعْرُها الذَّهَبِىُّ الْجَمِيلُ، واسْتَرْسَلَ عَلَى قَوامِها الدَّقِيقِ حَتَّى بَلَغَ قَدَمَيْها. فَتَحَيَّرَتِ «الشَّقْراءُ» مِمَّا رَأَتْ، وَظَنَّتْ أَنَّها لا تَزالُ نائِمَةً، سابِحَةً فِى أَحْلامِها اللَّذِيذَةِ هائِمَةً. فَلَمْ تَكَدْ تُصَدِّقُ عَيْنَيْها فِيمَا تَرَيانِ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى مَلابِسِها فارْتَدَتْها، ثُمَّ ذَهَبَتْ — عَلَى الْفَوْرِ — إِلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ.



وَما رَأَتْها حَتَّى سَأَلَتْها مُتَعَجِّبَةً: «أُمَّ عَزَّةَ: سَيدَتِى أُمَّ عَزَّةَ! هٰانَذِى ضارِعَةٌ إِلَيْكِ مُتَوَسِّلَةٌ — يا أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ — أَنْ تُفَسِّرِى لِى سِرَّ هٰذا التَّحَوُّلِ الَّذِى أَراهُ وَأُحِسُّهُ فِى نَفْسِى. أَواهِمَةٌ أَنا؟ أَمْ كَبِرْتُ حَقاًّ؟»

فَقالَتْ «أُمُّ عَزَّةَ»: «لا رَيْبَ أَنَّ سِنَّكِ قَدْ نَمَتْ، فَأَصْبَحْتِ الآنَ فِى الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِكِ؛ لأَنَّ رَقْدَتَكِ اسْتَمَرَّتْ سَبْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً. وَقَدْ أَصْبَحْتِ ضِعْفَ ما كُنْتِ جِسْمًا وَعُمْرًا. فَقَدِ اجْتَمَعَ رَأْىُ وَلَدِى وَرَأْيِى عَلَى أَنْ نَرْفَعَ عَنْكِ عَناءَ ما تَتَطَلَّبُهُ الدِّراساتُ الْأَوَّلِيَّةُ مِنْ جُهْدٍ، وَرَأَيْنا أَنْ تَرْقُدِى سَبْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً، نُلَقِّنُكِ — فِى أَثْنائِها — كُلَّ ما تَحْتاجِينَ إِلَيْهِ مِنْ فُنُونِ الثَّقافَةِ وَالْعِلْمِ. فَلَمْ نَدَّخِرْ وُسْعًا فِى تَعْلِيمِكِ وأَنْتِ نائِمَةٌ؛ فَعَرَفَتِ ما لَمْ تَكُونِى تَعْرِفِينَ، وَأَصْبَحْتِ الآنَ تَقْرَئِينَ وَتَكْتُبِينَ، وَقَدْ كُنْتِ — قَبْلَ أَنْ تَنامِى — لا تَعْرِفِينَ مِنَ الْقِراءَةِ والْكِتابَةِ حَرْفًا واحِدًا.

ما بالِى أَلْمَحُ فِى عَيْنَيْكِ أَنَّكِ تَشُكِّينَ؟ لَعَلَّكِ غَيْرُ واثِقَةٍ مِمَّا تَسْمَعِينَ. فَهَلُمِّى إِلَى الْمَكْتَبَةِ لِتَعْلَمِى عِلْمَ الْيَقِينِ.»

(٢) ثَقافَةُ «الشَّقْراءِ»

فَتَبِعَتْها «الشَّقْراءُ» إلَى قاعَةِ الدَّرْسِ. وَما جَلَسَتْ إلَى «الْبيانِ» حَتَّى رَأَتْ أَنَّها تُجِيدُ الْعَزْفَ، كَأَحْسَنِ ما تُجِيدُهُ أَمْهَرُ الْعازِفاتِ. وَأَمْسَكَتِ «النَّاىَ» فَأَتَتْ بِأَعْذَبِ الْأَنْغامِ. ثُمَّ أَمْسَكَتِ الْعُودَ، فَغَنَّتْ ما شاءَتْ مِنْ بَدائِعِ الْأَلْحانِ. ثُمَّ أَمْسَكَتِ الْمِرْقَمَ، فَرَسَمَتْ أَلْواحًا فَنِّيَّةً رائِعَةً. وَرَأَتْ أَنَّها تُصَوِّرُ ما تَشاءُ، فِى يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ عَجِيبَتَيْنِ، وَبَراعَةٍ وَمَهارَةٍ فائِقَتَيْنِ. ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِالْقَلَمِ، وَأَجْرَتْهُ عَلَى الْقِرْطاسِ، فَإِذا هِىَ ماهِرَةٌ فِى الْكِتابَةِ؛ مَهارَتَها فِى الْكِتابَةِ؛ مَهارَتَها فِى الرَّسْمِ والْعَزْفِ والْغِناءِ. ثُمَ نَظَرَتْ فِيما حَوَتْهُ الْمَكْتَبَةُ مِنْ نَفائِسِ الْكُتُبِ.

وَما فَتَحَتْها حتَّى ذَكَرَتْ أَنَها قَرَأَتْ أَكْثَرَها، إن لَمْ تَكُنْ قَرَأَتْها جَمِيعًا. فامْتَزَجَتْ فِى نَفْسِها الدَّهْشَةُ بِالسُّرُورِ، وَأَسْرَعَتْ إلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وَوَلَدِها، فانْهالَتْ عَلَيْهِما لَثْمًا وَتَقْبِيلًا، وَأَمْطَرَتْهُما ثَناءً وَشُكْرًا. وَلَمْ تَدَّخِرْ وُسْعًا فِى التَّعْبِيرِ لَهُما عَنْ فَرَحِها وَعِرْفانِها بِجَمِيلِهِما، وَقالَتْ لَهُما فِيما قالَتْ: «أَىُّ جَمِيلٍ طَوَّقْتُما بِهِ عُنُقِى، أَيُها الصَّدِيقانِ الْكَرِيمانِ! شَدَّ ما أَحْسَنْتُما إلَىَّ.»

(٣) فِى الْمِرْآةِ

فَشَكَرَتْ لَها «أُمُّ عَزَّةَ» ثَناءَها وَتَلَطُّفَها. وَأَقْبَلَ عَلَيْها «أَبُو خِداشٍ» يَلْحَسُ يَدَيْها فِى خِفَّةٍ وَرَشاقَةٍ. فاسْتَأْنَفَتِ «الشَّقْراءُ» حَدِيثَها قائِلَةً: «أَرْجُو أَنْ تُضِيفا إلَى صَنِيعِكُما فَضْلًا آخَرَ؛ فَتُخْبِرانِى: كَيْفَ حالُ أَبِى؟ أَما زالَ يَبْكِى لِفراقِى؟ أَمْ خَفَّفَ النِّسْيانُ بَعْضَ ما يَلْقاهُ مِنْ حُزْنٍ؟»

فَقالَتْ «أُمُّ عَزَّةَ»: «هٰذِهِ رَغْبَةُ حَقٍّ، وَلَا بُدَّ مِنْ إجابَتِكِ إلَيْها. هاكِ الْمِرْآةَ، فانْظُرِى فِيها، يا «شَقْراءُ»: تَرَىْ ما وَقَعَ لِأَبِيكِ؛ مُنْذُ فارَقْتِهِ إلَى الآنَ.»

فَرَفَعَتِ «الشَّقْراءُ» عَيْنَيْها إلَى الْمِرْآةِ، فَرَأَتْ فِيها حُجْرَةَ أَبِيها: «حَبِّ الرُّمَّانِ»، والحَيْرَةُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَمْشِى فِى أَرْجاءِها مُضْطَرِبًا ثائِرَ النَّفْسِ، كَأَنَما يَتَرَقَّبُ أَحَدًا، وَقَدْ نَفِدَ صَبْرُهُ لِطُولِ الِانْتِظارِ. ثُمَ رَأَتْ زَوْجَهُ «سُمَيَّةَ» قادِمَةً عَلَيْهِ، وَهِىَ تَقُولُ مُتَعَجِّبَةً: «إنَّ الشَّقْراءَ» قَدْ أَبَتْ — بِرَغْمِ مُعارَضَةِ «شَرْهانَ» — إلَّا أَنْ تَسُوقَ

بِنَفْسِها الْعَرَبَةَ، وَتُوَجِّهَ النَّعامَتَيْنِ إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ. فَلَمَّا بَلَغَتْها أَسْرَعَتْ إِلَى سُورِ الْغابَةِ فاقْتَحَمَتْهُ فَجْأَةً، وَلَمْ تُبالِ تَحْذِيرَ «شَرْهانَ». وَلَقَدِ اسْتَوْلَى الْفَزَعُ والرُّعْبُ عَلَى «شَرْهانَ» الْمِسْكِينِ، حَتَّى خَشِيتُ عَلَيْهِ أَنْ يُسْلِمَهُ الْخَوْفُ إِلَى الْجُنُونِ أَو الْمَوْتِ؛ فَأَرْسَلْتُهُ إِلَى أَهْلِهِ لِأُخَفِّفَ عَنْهُ هَوْلَ ما يَشْعُرُ بِهِ.»

وَرَأَتِ «الشَّقْراءُ» فِى الْمِرْآةِ كَيْفَ وَقَعَ الْخَبَرُ عَلَى قَلْبِ أَبِيها وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ. وَكَيْفَ اشْتَدَّ الْيَأْسُ بِهِ حَينَ سَمِعَ هٰذا النَّبَأَ، فَحاوَلَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ لِيَبْحَثَ عَنْها: وَقَدْ كادَ يَفْعَلُ لَوْلا أَنَّهُمْ حالُو بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذِهِ الْمُخاطَرَةِ بِالْقُوَّةِ. وَرَأَتْ كَيْفَ اشْتَدَّ بِهِ الْأَلَمُ فَلَمْ يَكُفَّ عَنْ مُناداتِها. فَلَمَّا نامَ رَأَى بِنْتَهُ فِى عالَمِ الْأَحْلامِ جالِسَةً فِى قَصْرِ «أُمِّ عَزَّةَ» و«أَبِى خِداشٍ»، وَسَمِعَ مِنْهُما ما أَثْلَجَ صَدْرَهُ، إِذْ تَعَهَّدا لَهُ أَنْ يُعِيدا إِلَيْهِ طِفْلَتَهُ يَوْما ما، وَعَرَفَ أَنَّها لَمْ تَلْقَ فِى ضِيافَتِهِما غَيْرَ التَّكْرِيمِ والْعِنايَةِ، والْحَفاوَةِ والرِّعايَةِ.

وَما بَلَغَتِ الشَّقْراءُ هٰذا الْمَنْظَرَ، حَتَّى صَدِئَتِ الْمِرْآةُ، واخْتَفَى عَنْ ناظِرِها كُلُّ شَىْءٍ. ثُمَّ عادَتِ الْمِرْآةُ مِنْ جَدِيدٍ مَجْلُوَّةً مَصْقُولَةً كَما كانَتْ. وَظَهَرَ أَبُوها مَرَّةً أُخْرَى وَقَدْ أَدْرَكَتْه الشَّيْخُوخَةُ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ مِنْهُ شَيْبًا، فَجَلَسَ حَزِينًا كَئِيبًا، وَقَدْ أَمْسَكَ فِى يَدِهِ بِصُورَةٍ صَغِيرَةٍ لِلْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ»، وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيْها زَمَنًا طَوِيلًا، ثُمَّ تَغْمُرُ عَيْنَيْهِ الدُّمُوعُ فَيَتْرُكُها قَلِيلًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْها لِيَمْلَأَ ناظِرَيْهِ مِنْها. وَقَدْ حَزِنَتِ الْأَمِيرَةُ حِينَ رَأَتْهُ مُنْفَرِدًا لا يُؤْنِسُهُ أَحَدٌ.

وَدَهِشَتْ لِأَنَّها لَمْ تَرَ «سُمَيَّةَ» وَلا بِنْتَها «السَّمْراءَ» إِلَى جانِبِهِ. فَأَخْبَرَتْها الْمِرْآةُ أَنَّ «حَبَّ الرُّمَّانِ» غَضِبَ عَلَى «سُمَيَّةَ»؛ فَبَعَثَ بِها إِلَى أَبِيها الْمَلِكِ: «نَوْفَلٍ». وَكانَ سَبَبُ غَضَبِهِ عَلَيْها أَنَّها تَلَقَّتْ نَبَأَ فِقْدانِ «الشَّقْراءِ» بِغَيْرِ اكْتِراثٍ، بَلْ هِىَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكْتُمَ فَرَحَها بِذٰلِكَ وَشَماتَتَها. فَأَمَرَ الْمَلِكُ «نَوْفَلٌ» بِسَجْنِها فِى بُرْجِ الْعَذابِ. فَتَعاوَنَتْ عَلَيْها الْوَحْدَةُ والضَّجَرُ، وَتَمَلَّكَها الْغَيْظُ والْغَضَبُ، فانْتابَها الْجُنُونُ. وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ لَقِيَتْ حَتْفَها، فَماتَتْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْها مِنْ أَحَدٍ.

أَمَّا بِنْتُها «السَّمْراءُ» فَقَدْ زادَتْ حَماقَتُها وَشَراسَتُها — يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ — حَتَّى أَصْبَحَتْ لا تُطاقُ. وقَدْ زُوِّجَتْ فِى الْعامِ الْماضِى بالْأَمِيرِ «سَلِيمٍ». وَهُوَ أَمِيرٌ حازِمٌ أَلْمَعِىٌّ بَعِيدُ النَّظَرِ، واسِعُ الْخِبْرَةِ بِالطَّبائِعِ الْإِنْسانِيَّةِ. فَلَمْ يُقَصِّرْ فِى تَأْدِيبِ «السَّمْراءِ»

وَزَجْرِها والْقَسْوَةِ عَلَيْها. فاضْطَرَّها ذٰلِكَ إِلَى أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ قَسْوَتِها، وَتُلِينَ مِنْ حِدَّتِها وشَراسَتِها.

وَهٰكَذا أَفْلَحَ «سَلِيمٌ» فِى تَرْوِيضِ نَفْسِها الْجَامِحَةِ، وَتَحْسِينِ طَبْعِها النَّكِدِ. فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَتْ مِثالًا لِلْوَداعَةِ واللُّطْفِ وَكَرَمِ الْخِلالِ.

فَلَمَّا رَأَتِ «الشَّقْراءُ» ذٰلِكَ شَكَرَتْ لِـ«أُمِّ عَزَّةَ» ما هَيَّأَتْهُ لَها مِنْ تَعَرُّفِ ما جَهِلَتْهُ مِنَ الْحَقائِقِ.

(٤) صَمْتُ «الشَّقْراءِ»

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ أُخْرَى، واشْتَدَّ الْقَلَقُ بِـ«الشَّقْراءِ» وَأَضْجَرَها أَنْ تَقْضِىَ أَكْثَرَ أَوقاتِها صامِتَةً مُسْتَسْلِمَةً لِهُمُومِها وَأَحْزانِها. وَلَمْ تَجِدْ فِى كُلِّ مَنْ حَوْلَها أَحَدًا قادِرًا عَلَى مُحادَثَتِها غَيْرَ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، وَهِىَ لا تَظْفَرُ بِلِقائِها إِلَّا فِى أَوْقاتِ الدَّرْسِ وتَناوُلِ الطَّعامِ. أَمَّا «أَبُو خِداشٍ» فَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ عَلَى سُؤالِها وَيُفْضِىَ إِلَيْها بِجَوابِ ما تُرِيد بِأَكْثَرَ مِنَ الْإِشَاراتِ والْمُواءِ والنَّظَراتِ. وَلَمْ تَكُنْ غِزْلانُ الْغابَةِ الَّتِى تَخْدُمُ «الشَّقْراءَ» — بِمَهارَةٍ وَدِرايَةٍ — بِقادِراتٍ عَلَى الْكَلامِ أَيْضًا.

وَلَمْ يَكُنْ يُؤْذَنُ «لِلشَّقْراءِ» فِى التَّجْوالِ والتَّنَزُّهِ إِلَّا مَعَ «أَبِى خِداشٍ» الَّذِى كانَ لا يُقَصِّرُ فِى رِعايَتِها واصْطِحابِها إِلَى أَجْمَلِ الْمُتَنَزَّهاتِ، وَتَخَيَّرِ أَبْدَعِ ما تَحْوِيهِ مِنْ الْأَزْهارِ لَها.

(٥) نَصِيحَةُ الْوَعِلَةِ

وَكانَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ قَدْ أَخَذَتْ عَلَى «الشَّقْراءِ» عهْدًا أَلَّا تَتَجاوَزَ بابَ الْحَدِيقَةِ، وحَذَّرَتْها أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْغابَةِ.

فَلَمَّا سَأَلَتْها «الشَّقْراءُ» — أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ — عَنْ سَبَبِ هٰذا الْمَنْعِ، لَمْ تَسْمَعْ مِنْها جَوابًا غَيْرَ تَنَهُّداتِ الْحَسْرَةِ والْأَلَمِ، مَشْفُوعَةً بِقَوْلِها: «إِنَّ الْغابَةَ — يا «شَقْراءُ» — جالِبَةُ الْأَلَمِ والشَّقاءِ. فَحَذارِ أَنْ تُحاوِلِي أَوْ تُفَكِّرِي فِي مُخالَفَةِ هذِهِ النَّصِيحَةِ.»

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» تَصْعَدُ — فِى بَعْضِ الْأَحْيانِ — إلَى جَناحٍ مُنْفَرِدٍ يُشْرِفُ عَلَى الْغابَةِ، فَتَبْدُو لِعَيْنَيْها أَشْجارُها الْبَدِيعَةَ، وَأَزْهارُها الْجَمِيلَةُ، وَتَلُوحُ لَها آلافُ الطُّيُورِ مُحَلِّقَةً فِى طَيَرانِها، مُغَرِّدَةً شادِيَةً، كَأَنَّما تَهُمُّ أَنْ تُنادِيَها.

وَكانَتْ كُلَّما دارَتْ بِذِهْنِها مِثْلُ هٰذِهِ الْوَساوِسِ والْأَفْكارِ، قَطَعَها عَلَيْها «أَبُو خِداشٍ»، وَلَمْ يَدَع لَها فُرْصَةً لِلتَّمادِى فِيها، وَجَذَبَها مِنْ ثَوْبِها، فَلَمْ تَمْلِكْ أَنْ تُخالِفَهُ.

الفصل السابع

(١) حَدِيثُ «أُمِّ عَزَّةَ»

وَمَرَّتْ عَلَى «الشَّقْراءِ» سِتَّةُ أَشْهُرٍ — أَوْ قَرِيبٌ — قَضَتْها فِى قَصْرِ الْغِزْلانِ، بَعْدَ أَنْ أَفاقَتْ مِنْ رُقادِها الطَّوِيلِ الَّذِى ٱحْتَواها سَبْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً. وَطالَ بِها الْوَقْتُ، أَوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — بَدا لَها الْوَقْتُ طَوِيلًا، وَخُيِّلَ إِلَيْها أَنَّ ساعاتِ الْيَوْمِ قَدْ أَصْبَحَتْ أَطْوَلَ مِمَّا أَلِفَتْهُ. وَظَلَّتْ تُعاوِدُها ذِكْرَى أَبِيها فِى أَكْثَرِ الْأَوْقاتِ؛ فَتَمْلَأُ قَلْبَها حُزْنًا، وَتُفْعِمُ نَفْسَها أَلَمًا. وَلَمْ يَخْفَ عَلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وَوَلَدِها شَىْءٌ مِمَّا كانَ يَتَرَدَّدُ فِى خاطِرِ «الشَّقْراءِ» وَيَهْجِسُ فِى قَلْبِها. وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو خِداشٍ» وَأُمُّهُ يَمْلِكانِ لَها أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَا. وَآثَرَتِ «الشَّقْراءُ» السُّكاتَ، فَكَتَمَتْ شَكْواها، وَلَمْ تَبُحْ بِها، خَشْيَةَ أَنْ تُسِئَ إِلَى ضِيافَةِ «أُمِّ عَزَّةَ» الَّتِى لَمْ تُقَصِّرْ فِى إِكْرامِها.

عَلَى أَنَّ «أُمَّ عَزَّةَ» فاجَأَتْها قائِلَةً: «سَتَرَيْنَ والِدَكِ — يا «شَقْراءُ» — مَتَى بَلَغْتِ الْخامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِكِ، عَلَى أَنْ تَحْتَفِظِى بِما عَرَفْناهُ عَنْكِ مِنْ مَزايا الصَّبْرِ والتَّعَقُّلِ والاتِّزانِ. وَلَيْتَكِ تَأْخُذِينَ بِنَصِيحَتِى؛ فَلا تَشْغَلِي نَفْسَكِ بِالْمُسْتَقْبَلِ. وَلَوْ عَلِمْتِ — يا «شَقْراءُ» — أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ أَوانًا، لَما حاوَلْتِ أَنْ تَتَعَجَّلِي مُفارَقَتَنا قَبْلَ أَنْ يَحِينَ الْوَقْتُ.»

(٢) حَدِيثُ الْبَبَّغاءِ

وَفِى صَباحِ يَوْمٍ جَلَسَتِ «الشَّقْراءُ» مَهْمُومَةً مُنْفَرِدَةً بِنَفْسِها، وَهِىَ تُفَكِّرُ فِى حَياتِها الْجامِدَةِ.

ثُمَّ ٱنْتَبَهَتْ منْ تَفْكِيرِها عَلَى صَوْتِ طَرْقاتٍ ثَلاثٍ خَفِيفَةٍ عَلَى نافِذَتِها.

وَحانَتْ مِنْها الْتِفاتَةٌ، فَرَأَتْ بَبَّغاءَ خَضْراءَ جَمِيلَةً، بُرْتُقالِيَّةَ الْعُنُقِ والصَّدْرِ.



وَما رَأَتْ هٰذا الطَّائِرَ الْجَدِيدَ الْمَجْهُولَ حَتَّى دَهِشَتْ، وَخَفَّتْ إلَى لِقائِهِ، وَأَسْرَعَتْ إلَى الَّنافِذَةِ فَفَتَحَتْها لَهُ. واشْتَدَّتْ دَهْشَتُها حِينَ سمِعَتِ الْبَبَّغاءَ تَتَكَلَّمُ وَتُخاطِبُها بِصَوْتٍ خافِتٍ رَقِيقٍ: «عِمِى صَباحًا، يا «شَقْراءُ». إنِّى أَعْرِفُ أَنَّكِ تَتَضَجَّرِينَ وَتَتَأَلَّمِينَ أَحْيانًا حِينَ لا تَظْفَرِينَ بِلِقاءِ مَنْ تَتَحَدَّثِينَ إلَيْهِ. وَهٰأَنَذِى جِئْتُ إلَيْكِ لِأُونِسَكِ بِالْحدِيثِ، وَأُزِيلَ

وَحْشَتَكِ. وَلَسْتُ أُرِيدُ — عَلَى ذٰلِكَ — جَزاءً أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُعاهِدِينِى عَلَى كِتْمانِ سِرِّى، فَلا تَبُوحِى بِهِ إِلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، وَلا تُخْبِرِيها بِزِيارَتِى، وَإِلَّا قَطَعَتْ رَأْسِى فِى الْحالِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «وَلِماذا تَقْطَعُ رَأْسَكِ أَيَّتُها الْبَبَّغاءُ الْجَمِيلَةُ؟ إِنَّها كَرِيمَةٌ عادِلَةٌ، مُحْسِنَةٌ فاضِلَةٌ، وَهِىَ لا تُسِىءُ إِلَى أَحَدٍ، وَلا تَكْرَهُ غَيْرَ الثُّقَلاءِ والْحَمْقَى والْمَجانِينِ.»

فَقالَتْ لَها الْبَبَّغاءُ: «إِذا لَمْ تَعِدِينِى — يا «شَقْراءُ» — بِكِتْمانِ أَمْرِى والِاحْتِفاظِ بِسِرِّى، عَنْ أَمِيرَةِ الغِزْلانِ، فالْوَداعَ مُنْذُ الآنَ، وِلَنْ تَرَىْ وَجْهِىَ بَعْدَ ذٰلِكِ أَبَدًا.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَكِ عَلَيَّ أَنْ أَكْتُمَ حَدِيثَكِ، وَلا أَبُوحَ لِأَحَدٍ بِزِيارَتِكِ، طاعَةً لِأَمْرِكِ، وَنُزُولًا عَلَى إِرادَتِكِ، وتَحْقِيقًا لِرَغْبَتِكِ. فَهاتِى ما عِنْدَكِ مِنَ الْحَدِيثِ — أَيَّتُها الْبَبَّغاءُ الْجَمِيلَةُ — لَعَلَّ فِى حَدِيثِكِ لِى بَعْضَ السَّلْوَى والْعَزاءِ.»

وَطَفِقَتِ الْبَبَّغاءُ تَتَحَبَّبُ إِلَيْها، وَتَفْتَنُّ فِى إِظْهارِ شَوْقِها إِلَى لِقائِها، وَإِعْجابِها بِما وَهَبَها اللهَ مِنْ فَضائِلَ، ومَا مَيَّزَها بِهِ مِنْ ذَكاءٍ. فَسُرَّتِ «الشَّقْراءُ» مِمَّا سَمِعَتْ مِنْ عِباراتِ الْمَدِيحِ والتَّمْلِيقِ. ثُمَ طارَتِ الْبَبَّغاءُ — بَعْدَ أَنْ جَلَسَتْ مَعَها ساعَةً — عَلَى أَنْ تَعُودَ إِلَيْها فِى الْغَدِ. وَقَدْ بَرَّتِ الْبَبَّغاءُ بِوَعْدِها، فَعادَتْ — عِدَّةَ أَيَّامٍ مُتَواصِلَةٍ — وَهِىَ لا تُقَصِّرُ فِى التَّوَدُّدِ إِلَيْها وَتَسْلِيَتِها، وَرِوايَةِ بَدائِعِ الْقِصَصِ وَطَرائِفِ الْأَحادِيثِ.

وَفِى صَباحِ يَوْمٍ، طَرَقَتِ الْبَبَّغاءُ النَّافِذَةَ، وَهِىَ تَقُولُ فِى لَهْفَةٍ شَدِيدَةٍ: «شَقْراءُ! شَقْراءُ! افْتَحِي يا شَقْراءُ. فَقَدْ جِئْتُ أَحْمِلُ إِلَيْكِ نَبأً عَنْ أَبِيكِ.»

فَفَتَحَتِ «الشَّقْراءُ» النَّافِذَةَ، وَقالَتْ لِلْبَبَّغاءِ. «أَحَقِيقَةً — يا بَبَّغائِي — أَنَّكِ آتِيَةٌ لِى بِأَنْباءٍ عَنْ أَبِى؟ خَبِّرِينِى ماذا يَصْنَعُ الآنَ؟ وَكَيْفَ هُوَ؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «إِنَّ أَباكِ فِى صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، يا شَقْراءُ، وَلٰكِنَّهُ ما يَزالُ يَبْكِيكِ، وَلَمْ يَكُفَّ عَنِ الْحُزْنِ لَحْظَةً واحِدَةً، مُنْذُ فارَقْتِهِ إِلَى الآنَ. وَقَدْ وَعَدْتُهُ — وَلَنْ أُخْلِفَ وَعْدِى مَعَهُ — بِأَنْ أَبْذُلَ ما أَمْلِكُ مِنْ نُفُوذٍ ضَئِيلٍ، وَسُلْطانٍ قَلِيلٍ، لِأُنْقِذَكِ مِنْ هٰذا السِّجْنِ الطَّوِيلِ. ولٰكِنْ لَيْسَ فِى وُسْعِي أَنْ أَقُومَ بِهٰذا الْمُهِمِّ كُلِّهِ وَحْدِى. وَلا بُدَّ لِتَحْقِيقِهِ أَنْ تَبْذُلِى شَيْئًا مِنْ مَعُونَتِكِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَوْ عَرَفْتِ ما بَذَلَتْهُ «أُمُّ عَزَّةَ» وَوَلَدُها فِى تَثْقِيفِي وَتَعْلِيمِي، والسَّهَرِ عَلَى راحَتِى، لَضاعَفْتِ مِنْ شُكْرِهِما، وَلَمْ تُفَكِّرِي — لَحْظَةً واحِدَةً — فِى

اتِّهامِهما. وَلَيْسَ أَشْهَى إلَى نَفْسَيْهِما، وَلا أَبْهَجَ لِقَلْبِيْهِما، مِنْ أَنْ تُتاحَ لَهُما الْوَسِيلَةُ لِيُعِيدانِى إلَى أَبِى فِى أَسْرَعِ وَقْتٍ. أَلا تَقْبَلِينَ أَنْ أُقَدِّمَكِ لَهُما لِتَنْعَمِى بِمَودَّتِهِما؟»

فَقالَتْ لَها الْبَبَّغاءُ، بِصَوْتِها الْمُنْخَفِضِ: «يا لَكِ مِنْ ساذَجَةٍ طَيِّبَةِ الْقَلْبِ. إنَّكِ لا تَعْرِفِينَ — يا شَقْراءُ — حَقِيقَةَ «أُمِّ عَزَّةَ» و«أَبِى خِداشٍ». وَلا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُمَثِّلِى لِنَفْسِكِ مِقْدارَ ما يُضْمِرانِهِ لِى مِنْ كَراهِيَةٍ وَبَغْضاءَ وَحِقْدٍ. لِأَنَّهُما يَعْلَمانِ أَنَّنِي — عَلَى ضَعْفِي — طالَما أَنْقَذْتُ الْكَثِيرَ مِنْ صَرْعاهُما، وَفَكَكْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أَسْراهُما.

(٣) فَكُّ الطِّلَّسْمِ

واعْلَمِي — يا «شَقْراءُ» — اَنَّكِ لَنْ تَخْرُجِي مِنْ هٰذِهِ الْغابَةِ، وَلَنْ تَظْفَرِى بِلِقاءِ أَبِيكِ أَبَدًا، إذا لَمْ تَفُكِّى بِنَفْسِكِ الطِّلَّسْمَ الَّذى يُقَيِّدُكِ هُنا.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «أَىَّ طِلَسْمٍ تَعْنِينَ؟ إنِّى لا أَفْهَمُ شَيئًا مِمَّا تَقُولِينَ. وَمَا أَدْرِي أَيَّةُ فائِدَةٍ تَعُودُ عَلَيْهِما مِنْ حَجْزِى فى هٰذا الْمَكانِ وَبَقَائِي إلَى جِوارِهِما؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «إنَّما يَحْجُزانِكِ لِيَتَسَلَّيا بِكِ فِى عُزْلَتِهِما. أَمَّا الطِّلَّسْمُ الَّذِى حَدَّثْتُكِ عَنْهُ فَهُوَ وَرْدَةٌ فِى الْغابَةِ، لا يَقْطِفُها إلَّا أَنْتِ وَحْدَكِ دُونَ غَيْرِكِ، وَلا تَكادِينَ تَقْطِفِينَها حَتَّى تَخْلُصِي مِنْ سِجْنِكِ الْأَبَدِىِّ، وَتَعُودِى إلَى أَبِيكِ سالِمَةً، مُمَتَّعَةً بِلِقائِهِ غانِمَةً.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ» لِلْبَبَّغاءِ: «أَىَّ وَرْدَةٍ تَعْنِينَ، فَما أَكْثَرَ الْوُرُودَ؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «ذٰلِكِ ما أُحَدِّثُكِ بِهِ فِى غَيْرِ هٰذا الْيَوْمِ؛ فَقَدْ حانَ مَوْعِدُ قُدُومِهِما. فَإذا شِئْتِ أَنْ تَتَعَرَّفِى قِيمَةَ نَصِيحَتِى! وَتُدْرِكى نَفْعَ الْوَرْدِ لَكِ، فَحاوِلِى أَنْ تَطْلُبِى مِنْ «أُمَّ عَزَّةَ» وَرْدَةً واحِدَةً. والآنَ وَداعًا، يا «شّقْراءُ». وَداعًا إلَى غَدٍ.»

(٤) الزَّهْرَةُ الْخَبِيثَةُ

وَما طارَتِ الْبَبَّغاءُ حَتَّى جاءَتْ «أُمُّ عَزَّةَ» ثائِرَةً مُهْتاجَةً، وَقالَتْ لـِ«الشَّقْراءِ»: «مَعَ مَنْ كُنْتِ تَتَكَلَّمِينَ؟»

فَكَتَمَتْ عَنْها «الشَّقْراءُ» حَدِيثَها مَعَ الْبَبَّغاءِ، وَبَذَلَتْ جُهْدَها لِتُوهِمَها أَنَّها لَمْ تُكَلِّمْ أَحَدًا قَطُّ.

فَقالَتْ لَها «أُمُّ عَزَّةَ»: «لَقَدْ سَمِعْتُكِ تَتَحَدَّثِينَ الآنَ!» فَقَالَتْ لَها: «كُنْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِى مُنْذُ قَلِيلٍ.»

فَسَكَتَتْ «أُمُ عَزَّةَ» عَلَى مَضَضٍ، وَبَدَتْ عَلَى وَجْهِها أَماراتُ الْحُزْنِ والْأَلَمِ؛ فَلَم تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْبِسَ دَمْعَةً سالَتْ مِنْ عَيْنَيْها.

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» — حينَئِذٍ — مَشْغُولَةَ الْقَلْبِ، شارِدَةَ الْفِكْرِ؛ لِأَنَّ ما حَدَّثَتْها بِهِ البَبَّغاءُ بَلْبَلَ خاطِرَها، وَشَرَّدَ ذِهْنَها، وَأَنْساها كُلَّ ما أَسْلَفَتْهُ إِلَيْها الْوَعِلَةُ وَوَلَدُها مِنْ صَنِيعٍ.

وهٰكَذا عَمِيَتِ «الشَّقْراءُ» عَنِ الْحَقِّ الْواضِحِ، وَأَطاعَتْ نَصِيحَةَ الْبَبَّغاءِ. فالْتَفَتَتْ إِلَى «أُمَّ عَزَّةَ» تَسْأَلُها: «ما بالُكِ — يا مَوْلاتِى — لا تُقَدِّمِينَ لِى — فِيما تُقَدِّمِينَ مِنْ طاقاتِ الْأَزْهارِ — وَرْدَةً واحِدَةً؟»

فَدَهِشَتْ «أُمُّ عَزَّةَ»، وَلَمْ تَتَمالَكْ أَنْ صَرَخَتْ فِى وَجْهِ «الشَّقْراءِ»: «شَقْراءُ! يا شَقْراءُ! حَذارِ أَنْ تُعِيدِى هٰذا السُّؤَالَ مَرَّةً أُخْرَى. حَذارِ أَنْ تُفَكِّرِى فِى هٰذِهِ الزَّهْرَةِ الْخَبِيثَةِ الْمَلْعُونَةِ، الَّتِى تَخِزُ أَشْواكُها كُلَّ مَنْ يَلْمُسُها. وَحَذارِ أَنْ تُحَدِّثِينِى عَنْها حَتَّى لا تَجْلُبِى عَلَى نَفْسِكِ ما لا قِبَلَ لَكِ بِهِ مِنَ النَّكَباتِ والْكَوارِثِ.»

فَلَمْ تَجْرُؤِ الْفَتاةُ عَلَى أَنْ تَنْطِقَ بِحَرْفٍ واحِدٍ.

(٥) عَوْدَةُ الْبَبَّغاءِ

وَفِى صَباحِ غَدٍ بَكَرَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى نافِذَةِ حُجْرَتِها، وَلَمْ تَفْتَحْها حَتَّى دَخَلَتِ الْبَبَّغاءُ، وَبَدأَتْ حَدِيثَها مَعَها ساخِرَةً وَهِىَ تَقُولُ: «أَرَأَيْتِ — يا شَقْراءُ — كَيْفَ اضْطَرَبَتْ «أُمُّ عَزَّةَ» وانْزَعَجَتْ حِينَ ذَكَرْتِ لَها اسْمَ الْوَرْدَةِ؟ أَرَأَيْتِ الآنَ كَيْفَ صَدَقْتُكِ الْقَوْلَ أَمْسِ؟ لَقَدْ وَعَدْتُكِ أَنْ أَدُلَّكِ عَلَى الْوَسِيلَةِ الَّتِى تَحْصُلِينَ بِها عَلَى واحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْوُرُودِ الْجَمِيلَةِ. والْيَوْمَ أُحَقِّقُ لَكِ وَعْدِى، وَأُعِينُكِ عَلَى تَحْقِيقِ رَغْبَتِكِ وَهِىَ — بِعَوْنِ اللهِ — هَيِّنَةٌ غَيْرُ عَسِيرَةٍ، وَلَنْ تُكَلِّفَكِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَخْرُجِى مِنَ الْحَدِيقَةِ، وَتَمْضِى فِى صُحْبَتِى إِلَى الْغابَةِ، حَتَّى أَبْلُغَ بِكِ حَدِيقَةَ الْوَرْدِ، حَيْثُ تَرَيْنَ أَجْمَلَ ما يَحْوِيهِ الْعالَمُ مِنْ وُرُودٍ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «وَلٰكِنْ كَيْفَ السَّبيلُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْحَدِيقَةِ، و«أَبُو خِداشٍ» لا يُفارِقُنِى أَيْنَما ذَهَبْتُ؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «مَتَى صَحَّتْ عَزِيمَتُكِ، فَلَنْ تَعْدَمِى وَسِيلَةً لِإِبْعادِهِ عَنْكِ. فَإِذا أَلَحَّ عَلَيْكِ فِى الْبَقاءِ فازْجُرِيهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَزْدَجِرْ فاضْرِبِيهِ، ثُمَّ اخْرُجِى بِرَغْمِ أَنْفِهِ، وَسَتَجِدِينَنِى فِى انْتِظارِكِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ الْوَرْدَةُ بَعِيدَةً، فَتَفْطُنَ الْوَعِلَةُ إِلَى غِيابِى.» فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «كَلَّا، فَلَيْسَ بَيْنَكِ وَبَيْنَها أَكْثَرُ مِنْ ساعَةٍ واحِدَةٍ. والْآنَ لا أُوصِيكِ بِغَيْرِ الشَّجاعَةِ والثَّباتِ وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ؛ حَتَّى يَتَحَقَّقَ أَمَلُكِ فِى الْخَلاصِ مِنَ الْأَسْرِ.»

(٦) ضَرْبَةٌ جائِرَةٌ

وَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ التَّالِى خَرَجَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى الْحَدِيقَةِ وَمَعَها «أَبُو خِداشٍ» بَعْدَ أَنْ تَغَدَّيا. وَحاوَلَتْ أَنْ تُفْلِتَ مِنْ صُحْبَةِ «أَبِى خِداشٍ»؛ فَلَمْ تَجِدْ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا.

فَلَمَّا بَلَغَتِ الْمَمْشَى الَّذِى يُؤَدِّى إِلَى بابِ الْحَدِيقَةِ، حاوَلَتْ أَنْ تُبْعِدَهُ عَنْها، فَطَلَبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَها وَحْدَها لِتَنْفَرِدَ بِنَفْسِها، فَلَبِثَ فِى مَكانِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا. فَلَمَّا اشْتَدَّ بِها الضِّيقُ رَكَلَتْهُ بِرِجْلِها غاضِبَةً حانِقَةً، وَضَرَبَتْهُ ضَرْبَةً عَنِيفَةً. فَصَرَخَ الْمِسْكِينُ مُتَأَوِّهًا، وَعَلَا مُواؤُهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ. ثُمَّ تَرَكَها عائِدًا إِلَى الْقَصْرِ، وَهُوَ لا يَكادُ يُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ.

وارْتَعَشَتِ الْفَتاةُ حِينَما سَمِعَتْ صَيْحَةَ الْقِطِّ الْمُفَزِّعَةَ، وَوَقَفَتْ فِى مَكانِها مَحْسُورَةً نادِمَةً عَلَى فَعْلَتِها. وَهَمَّتْ أَنْ تَسْتَدْعِيَهُ وَتَعْتَذِرَ إِلَيْهِ عَنْ إِساءَتِها، وَتَعْدِلَ عَنْ قَطْفِ الْوَرْدَةِ، وَتُطْلِعَ أُمَّهُ عَلَى ما حَدَّثَتْها بِهِ الْبَبَّغاءُ دُونَ أَنْ تُخْفِىَ عَنْها شَيْئًا؛ وَلٰكِنَّها خَجِلَتْ مِنْ إِساءَتِها إِلَى الْقِطِّ، وَدَفَعَها الْخَجَلُ الطَّائِشُ إِلَى الْفِرارِ.

وَكانَتْ قَدْ بَلَغَتْ بابَ الْحَدِيقَةِ، فَأَسْرَعَتْ إِلَى فَتْحِهِ، وَما فَتَحَتِ الْبابَ حَتَّى أَبْصَرَتْ نَفْسَها فِى الْغابَةِ. وَلَمْ تَلْبَث الْبَبَّغاءُ أَنْ أَدْرَكَتْها بَعْدَ قَلِيلٍ، وَظَلَّتْ تُقَوِّى مِنْ عَزْمِ الْفَتاةِ؛ فَمَضَتِ «الشَّقْراءُ» فِى الطَّرِيقِ الَّتِى رَسَمَتْها لَها الْبَبَّغاءُ. وَكانَتِ الْبَبَّغاءُ تَسْبِقُها طائِرَةً أَمامَها مِنْ فَنَنٍ إِلَى فَنَنٍ، مُتَنَقِّلَةً مِنْ غُصْنٍ إِلَى غُصْنٍ، وَتَشْغَلُها بِالْحَدِيثِ لِتُهَوِّنَ عَلَيْها عَناءَ السَّيْرِ وَمَشَقَّتَهُ.

(٧) بَيْنَ الْأَشْواكِ

وَبَدَتِ الْغابَةُ صَعْبَةَ الْمَسالِكِ، مَمْلُوءَةً بِالْحَسَكِ والشَّوْكِ، وَقَدْ كانَتْ تَحْسَبُها نُزْهَةً جَمِيلَةً هَيِّنَةً. وَرَأَتْ كُلَّ طَرائِقِها وَعْرَةً مَمْلُوءَةً بِالصُّخُورِ والْأَحْجارِ. وَلَمْ تَعُدْ أُذُناها تَسْمَعانِ تَغْرِيدَ الْأَطْيارِ، واخْتَفَى عَنْ عَيْنَيْها جَمالُ الْأَزْهارِ، وَأَحَسَّتْ أَلَمًا شَدِيدًا؛ فَحاوَلَتْ أَنْ تَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ، وَلٰكِنَّ الْبَبَّغاءَ ظَلَّتْ تَحُثها وَتُشَجِّعُها عَلَى السَّيْرِ، قائِلَةً: «عَجِّلِى، عَجِّلِى، يا «شَقْراءُ». وَحَذارِ أَنْ تُفْلِتَ مِنْ يَدَيْكِ هٰذِهِ الْفُرْصَةُ النّادِرَةُ. وَأَسْرِعِى بِانْتِهازِها قَبْلَ أَنْ تَفْطُنَ «أُمُّ عَزَّةَ» إِلَى غِيابِكِ، فَتَتْبَعَكِ وَتَحُولَ بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْخَلاصِ.»

وَلَمْ تَلْبَثِ «الشَّقْراءُ» أَنِ ٱسْتَوْلَى عَلَيْها التَّعَبُ، وَمَزَّقَتِ الْأَشْواكُ ذِراعَيْها وَحِذاءَها. فَحاوَلَتْ أَنْ تَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى، وَلٰكِنَّ الْبَبَّغاءَ ما زالَتْ بِها تُشَجِّعُها.

وَرَأَتِ «الشَّقْراءُ» حَوْلَ الْمَمَرِّ حَظِيرَةً صَغِيرَةً فَتَحَتِ الْبَبَّغاءُ بابَها، وَكانَتْ أَرْضُها جامِدَةً صَخْرِيَّةً. وَرَأَتْ فِى وَسَطِها شَجَرَةَ وَرْدٍ مُزْهِرَةً، بِها وَرْدَةٌ أَبْهَى ما فِى الْعالَمِ مِنْ وَرْدٍ. فَقالَتْ لَها الْبَبَّغاءُ: «خُذِى الْوَرْدَةَ يا «شَقْراءُ»؛ فأَنْتِ بِها جَدِيرَةٌ، بَعْدَ ما بَذَلْتِ مِنْ جُهُودٍ جَلِيلَةٍ.»

فَأَمْسَكَتِ «الشَّقْراءُ» بِالْغُصْنِ الَّذِى بِهِ الْوَرْدَةُ، وَقَطَفَتْها بِرَغْمِ ما أَحاطَ بِها مِنَ الْأَشْواكِ الَّتِى أَدْمَتْ يَدَها، وانْغَرَسَتْ فِى أَصابِعِها.

(٨) طالِعُ النَّحْسِ

وَلَمْ تَظْفَرِ «الشَّقْراءُ» بِالْوَرْدَةِ حَتَّى امْتَلَأَ الْجَوُّ بِصَيحاتِ الْفَرَحِ، وَعَلا الضَّجِيجُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. وَأَفْلَتَتِ الْوَرْدَةُ مِنْ يَدِها فِى الْحالِ، وَقالَتْ لَها ساكِنَتُها بِلِسانٍ فَصِيحٍ: «شُكْرًا لَكِ، يا «شَقْراءُ»، لِما قَدَّمْتِ إِلَيَّ مِنْ مَعْرُوفٍ. لَقَدْ أَطْلَقْتِنِى مِنَ السِّجْنِ الَّذِى حَجَزَتْنِى فِيهِ «أُمُّ عَزَّةَ»، أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ. وَهِىَ ساحِرَةٌ قَدِيرَةٌ؛ لَوْ تَعْلَمِينَ. وَقَدِ انْتَصَرَتْ عَلَيَّ بِسِحْرِها، حَتَّى جِئْتِ أَنْتِ فَفَكَكْتِ الطَّلاسِمَ والْأَرْصادَ الَّتِى جَعَلَتْ مِنْ هٰذِهِ الْوَرْدَةِ سِجْنًا لِى! وَأَطْلَقْتِ — بِاطْلاقِى — طالِعَ النَّحْسِ الَّذِى يُلازِمُكِ! وَمَصْدَرَ الشَّقاءِ الَّذِى يُطارِدُكِ. وَقَدْ ظَفِرْتُ بِكِ الْآنَ، وَأَصْبَحْتِ أَسِيرَتِى مُنْذُ الْيَوْمِ.»

وهُنا ضَحِكَتِ الْبَبَّغاءُ، بَعْدَ أَنْ نَجَحَ كَيْدُها، وَأَفْلَحَتْ مُؤَامَرَتُها، وَقالَتْ: «ها. ها. ها. شُكْرًا لَكِ — يا «شَقْراءُ» — عَلَى ما هَيَّأْتِهِ لِى مِنْ وَسِيلَةٍ لِلْخَلاصِ مِنْ سِجْنِى. لَقَدْ عَرَفْتُ كَيْفَ أَخْدَعُكِ بِما نَمَّقْتُهُ لَكِ مِنْ أَلْفاظٍ مَعْسُولَةٍ، واتَخَذْتُ مِنْكِ أَداةً لِإِهْلاكِ «أُمُّ عَزَّةَ» وابْنِها: صَدِيقَيْكِ اللَّذَيْنِ أَحْسَنا إلَيْكِ صُنْعًا.»

وَما هِىَ إلَّا أَنِ ٱسْتَخْفَتِ الْبَبَّغاءُ والْوَرْدَةُ، وبَقِيَتْ «الشَّقْراءُ» وَحْدَها فِى غابَةٍ كَثِيفَةٍ مُوحِشَةٍ.

الفصل الثامن

(١) خَرائِبُ وَأَطْلالٌ

وَجَزِعَتِ «الشَّقْراءُ» مِنْ سُلُوكِها الْخاطِئِ، الَّذِى جَمَعَ بَيْنَ التَّسَرُّعِ والْإساءَةِ. وَراحَتْ تُسائِلُ نَفْسَها مُتَعَجِّبَةً: «تُرَى ماذا تَعْنِيهِ الْبَبَّغاءُ حِينَ قالَتْ: لَقَدِ اتَّخَذْتُكِ أَداةً لِإهْلاكِ صَدِيقَيْكِ اللَّذَيْنِ أَحْسَنا إِلَيْكِ صُنْعًا؟»

وَحاوَلَتِ «الشَّقْراءُ» أَنْ تَعُودَ إِلَى قَصْرِ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، فَوَجَدَتِ الطَّرِيقَ شائِكَةً وَعْرَةً، وَقَدْ مَزَّقَتِ الْأَشْواكُ ذِراعَيْها، وَأَدْمَتْ ساقَيْها.

وَما زالَتْ تَضْرِبُ فِى الْغابَةِ، سائِرَةً فِى وَضَحِ النَّهارِ بَيْنَ الْحَشائِشِ والْأَعْشابِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى قَصْرِ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ بَعْدَ ثَلاثِ ساعاتٍ.

وَلٰكِنْ: أَيْنَ الْقَصْرُ؟ وَأَيْنَ حَدِيقَتُهُ؟ أَمَّا الْقَصْرُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا خَرائِبُ وَأَطْلالٌ، وأَمَّا الْحَدِيقَةُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلَّا أَشْواكٌ وَأَعْقابُ أَشْجارٍ يابِسَةٌ. أَما أَشْجارُها الْباسِقَةُ وَأَزْهارُها النَّضِيرَةُ الْعَطِرَةُ، فَقَدْ زالَتْ وَٱمَّحَتْ.

(٢) مُفاجَأَةٌ

وَأَرادَتِ «الشَّقْراءُ» أَنْ تَقْتَحِمَ هٰذِهِ الْخَرائِبَ والْأَشْواكَ، فَلَمْ تَرَ إِلَّا حَيَوانًا كَبِيرًا يَخْرُجُ لَها مِنْ بَيْنِ كُومَةِ الْأَحْجارِ، ثُمَّ يَقْتَرِب مِنْها قائِلًا: «عَمَّ تَبْحَثِينَ؟ أَعَنْ غِزْلانِ الْغابَةِ وَأَمِيرَتِهِنَّ وَوَلَدِها تُفَتِّشِينَ؟ وَيْحَكِ! أَلَسْتِ أَنْتِ السَّبَبَ فِى هَلاكِهِنَّ. فَماذا تَبْتَغِينَ بَعْدَ ذٰلِكَ؟ خَيْرٌ لَكِ أَنْ تَرْجِعِى مِنْ حَيْثُ أَتَيْتِ وَلا تُلَوِّثِى ذِكْراهُنَّ بِالتَّحَدُّثِ عَنْهُنَّ.»

فَصَرَخَتِ «الشَّقْراءُ» مُتَفَجِّعَةً: «آهٍ لَكُما، أَيُّها الصَّدِيقانِ، وَواهٍ عَلَيْكُما، أَيُّها الْمُحْسِنانِ. أَلا سَبِيلَ إِلَى افْتِدائِكُما، والتَّكْفِيرِ عَمَّا أَسْلَفْتُ مِنْ إساءَةٍ إِلَيْكُما؟»

وَهَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ مُتَخاذِلَةً جاثِيَةً، نادِمَةً بَاكِيَةً.

وَلَمَّا أَفاقَتْ مِنْ غَشْيَتِها، أَجالَتِ النَّظَرَ فِيما حَوْلَها، لَعَلَّها تَكْشِفُ مَوْئِلًا تَلُوذُ بِهِ، أَوْ دارًا تَأْوِي إِلَيْها، فَلَمْ تَرَ أَمامَها غَيْرَ أَحْجارٍ مُتَناثِرَةٍ، وَغُصُونٍ، شائِكَةٍ مُبَعْثَرَةٍ. فَقالَتْ فِى نَفْسِها: «وَماذَا يُخِيفُنِى إِنْ كانَ يُمَزِّقُنِى سَبْعٌ مِنَ السِّباعِ الْمُفْتَرِسَةِ، أَوْ يَأْكُلُنِى ضارٍ مِنَ الضَّوارِي الْفاتِكَةِ، أَوْ أَهْلِكُ جُوعًا وَعَطَشًا؟ إِنَّ هٰذا أَيْسَرُ ما أَسْتَحِقُّ مِنْ جَزاءٍ عَلَى ما جَلَبْتُهُ عَلَى «أُمِّ عَزَّةَ» وَوَلَدِها وَغِزْلانِها مِنَ الْإِساءَةِ والْأَذَى.»

(٣) حَدِيثُ الْغُرابِ

وَلَمْ تَنْتَهِ «الشَّقْراءُ» مِنْ هٰذِهِ الْكَلِماتِ حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتًا يَقُولُ: «هَوِّنِى عَلَيْكِ أَيَّتُها الْأَمِيرَةُ، وَخَفِّفِى مِنْ جَزَعِكِ؛ فَإِنَّ النَّدَمَ يَمْحُو الْإِساءَةَ، والتَّوْبَةَ تُصْلِحُ الْخَطَأَ، وَتَغْفِرُ الذَّنْبَ الَّذِى لا يُغْتَفَرُ.»

فَرَفَعَتْ رَأْسَها فَلَمْ تَرَ إِلَّا غُرابًا كَبِيرًا يَطِيرُ فَوْقَ رَأْسِها. فَقالَتْ مُتَلَهِّفَةً: «أَحَقًّا تَقُولُ؟ أَيَسْتَطِيعُ النَّدَمُ اللَّاذِعُ أَنْ يَمْحُوَ إِساءَتِى، وَيُعِيدَ الْحَياةَ إِلَى أَمِيرَةِ الْغابَةِ وابْنِها وَغِزْلانِها؟»

فَقالَ لَها الصَّوْتُ: «لا رَيْبَ أَنَّ النَّدَمَ يَمْحُو الذُّنُوبَ مَهْما تَكْبَرْ، فاعْتَصِمِى بِالشَّجاعَةِ، وَلا تَرْكَنِى إِلَى الْيَأْسِ.»

فَذَهَبَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى مَكانٍ قَفْرٍ مِنَ الْغابَةِ، خالِيَةٍ أَشْجارُهُ مِنَ الشَّوْكِ.

(٤) حَدِيثُ الضِّفْدِعِ

ثُمَّ جَلَسَتْ إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَظَلَّتْ تَبْكِى بُكاءً مُرًّا؛ فَطَرَقَ سَمْعَها صَوْتٌ آخَرُ يَقُولُ لَها: «تَجَلَّدِى، يا «شَقْراءُ»، وابْعَثِى الْأَمَلَ فِى نَفْسِكِ مِنْ جَدِيدٍ.»



وَنَظَرَتِ «الشَّقْراءُ» فَرَأَتْ أَمامَها ضِفْدِعًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْها، فَقالَتْ لَها «الشَّقْراءُ»: «هَلْ تَعْرِفِينَ — بِرَبِّكِ — وَسِيلَةً أَسْلُكُها، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ وَحِيدَةً فِى هٰذا الْعالَمِ؟»

فَقالَتْ لَها الضِّفْدِعُ: «الشَّجاعَةَ والْأَمَلْ.»

(٥) حَدِيثُ الْبَقَرَةِ

فَتَنَهَّدَتِ «الشَّقْراءُ» وَنَظَرَتْ فِيما حَوْلَها، لَعَلَّها تَجِدُ فاكِهَةً تَسُدُّ بِها جوعَها، وَتَرْوِى ظَمَأَها، فَلَمْ تَقَعْ عَيْناها عَلَى شَىْءٍ؛ فَعاوَدَها الْحُزْنُ والْبُكاءُ. ثُمَّ سَمِعَتْ صَوْتَ جَلاجِلَ وأَجْراس نَبَّهَتْها مِنْ آلامِها.

وَنَظَرَتْ، فَإِذا بَقَرَةٌ سَمِينَةٌ تَدْنُو مِنْها — عَلَى مَهْلٍ — حَتَّى إذا بَلَغَتْ مَكانَها، وَقَفَتْ أَمامَها، وَحَنَتْ رَأْسَها، ثُمَ أَشارَتْ إِلَى وِعاءٍ مُعَلَّقٍ فِى عُنُقِها.

وَقَدْ تَعَوَّدَتِ «الشَّقْراءُ» أَمْثالَ هٰذِهِ النَّجَداتِ الْمُفاجِئَةِ الْمَحْمُودَةِ؛ فَفَهِمَتْ ما تَعْنِيهِ الْبَقَرَةُ، وانْتَزَعَتِ الْوِعاءَ مِنْ عُنُقِها، وَحَلَبَتْ مِلْءَ الوِعاءِ. فَلَمَّا ارْتَوَتْ مِنْ لَبَنِها السَّائِغِ اللَّذِيذِ، أَشارَتِ الْبَقَرَةُ إِلَيْها أَنْ تُعِيدَ الْوِعاءَ إِلَى عُنُقِها. فَأَعادَتْهُ حامِدَةً، ثُمَّ قالَتْ لَها: «شُكْرًا لَكِ — يا «أُمَّ جَوْذَرٍ» — عَلَى مَعْرُوفِكِ، وَرَحْمَةُ اللهِ عَلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وابْنِها. فَما أَشُكُّ فِى أَنَّ هٰذا الإِسْعافَ الْكَرِيمَ إِنَّما جاءَنِى عَنْ طَرِيقِهِما. وَلَعَلَّهُما لَمْ يَنْسَيانِى بَعْدَ أَنِ انْتَقَلا إِلَى الْعالَمِ الآخَرِ.»

فَسَمِعَتِ الصَّوْتَ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ: «إِنَّ النَّدَمَ يَمْحُو الإِساءَةَ، والتَّوْبَةَ تُصْلِحُ الْخَطَأَ، وَتَغْفِرُ الذَّنْبَ الَّذِى لا يُغْتَفَرُ.»

فَقالَتِ «الشَقْراءُ»: «لَوْ صَحَّ ما قُلْتَ؛ لَوَجَبَ عَلَيَّ أَنْ أَقْضِيَ طُولَ عُمْرِى مُكَرِّرَةً نَدَمِى، مُسْتَغْفِرَةً لِذَنْبِى.»

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ جَلَسَتِ «الشَّقْراءُ» — بِرَغْمِ حُزْنِها — تُفَكِّرُ كَيْفَ تَنْجُو بِنَفْسِها مِنَ الضَّارِياتِ الْفاتِكَةِ الشَّرِسَةِ، والسِّباعِ الْعادِيَةِ الْمُفْتَرِسَةِ. وَقَدْ خُيِّلَ لَها أَنَها تَسْمَعُ عُواءَ الذِّئابِ، وَزَئِيرَ أُسُودِ الغابِ.

(٦) بَيْنَ الْغُصُونِ

وَرَأَتْ — عَلَى قَيْدِ خُطُواتٍ مِنَ الْمَكانِ الَّذِى هَبَطَتْ إِلَيْهِ — مَحَلَّةً تَصْلُحُ أَنْ تُنْشِئَ فِيها خُصًّا تَأْوِي إِلَيْهِ بَيْنَ الْأَشْجارِ. فانْحَنَتْ شَيْئًا (قَلِيلًا) لِتَستَطِيعَ الدُّخُولَ بَيْنَ الْغُصُونِ الْمُلْتَفَّةِ، والْأَفْنانِ الْمُشْتَبِكَةِ، ثُمَّ وَصَلَتْ بَعْضَها بِبَعْضٍ، فَأَلَّفَتْ مِنْها مَنْزِلًا صَغِيرًا. وَقَضَتْ ما بَقِيَ مِنْ يَوْمِها فِى تَهيِئَةِ هٰذا الْمَسْكَنِ؛ فَأَحْضَرَتْ قَلِيلًا مِنَ الْأَعْشَابِ والْغُصُونِ، فَجَعَلَتْ مِنْها فِراشًا وَمِخَدَّةً وَغِطاءً.

ثُمَ كَسَرَتْ طائِفَةً أُخْرَى مِنَ الْغُصُونِ، وَغَرَسَتْها فِى الْأَرْضِ؛ فَجَعَلَتْ مِنْها بابًا وَحاجِزًا يَحْجُبُ مَدْخَلَ الْخُصِّ. وَيَصُدُّ عَنْهُ غارَةَ الْمُغِيرِينَ. ثُمَّ رَقَدَتْ مَجْهُودَةً مِنَ التَّعَبِ.

وَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ فِى الْيَوْمِ التَّالِى، قَضَتْ نَهارَها أَلِمَةً، حَزِينَةً نادِمَةً، حَتَّى إِذا شَعَرَتْ بِالْجُوعِ، سَمِعَتْ جَلاجِلَ الْبَقَرَةِ، وارْتَوَتْ مِنْ لَبَنِها الشَّهِىِّ، كَما ارْتَوَتْ أَمْسِ.

وَجلَسَتِ «الشَّقْراءُ» راجِيَةً أَنْ تَعُودَ إِلَيْها الْبَقَرَةُ كُلَّ يَوْمٍ. وَقَدْ تَحَقَّقَ رَجاؤُها، وَلَمْ يُخْطِئْ ظَنُّها، وَلَمْ تَتَخَلَّفْ عَنْها الْبَقَرَةُ يَوْمًا واحِدًا، وَظَلَّتْ مُواظِبَةً عَلَى زِيارَةِ «الشَّقْراءِ» صُبْحًا وَظُهْرًا وَمَساءً؛ لِتُغَذِّيَها بِلَبَنِها الشَّهِيِّ!

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» تُمْضِى وَقْتَها باكِيَةً، تُسائِلُ نَفْسَها: «لَقَدْ جَلَبْتُ بِعِصْيانِى وَعِنادِي كُلَّ هٰذِهِ الْمَصائِبِ والنَّكَباتِ، وَلَيْسَ فِى مَقْدُورِى أَنْ أُصْلِحَها أَوْ أُكَفِّرَ عَنْها، بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ وابْنَها. وَفَقَدْتُ — بِفَقْدِهِما — كُلَّ أَمَلٍ فِى لِقاءِ أَبِى الَّذِى طالَ شَوْقُهُ إِلَى رُؤْيَةِ بِنْتِهِ التَّاعِسَةِ.»

وَبَذَلَتِ «الشَّقْراءُ» كُلَّ ما فِى وُسْعِها لِتَنْسَى أَحْزانَها وَهُمُومَها، فَراحَتْ تَشْغَلُ نَفْسَها بِتَنْظِيمِ الْخُصِّ — الَّذِى أَنْشَأَتْهُ — وَتَرْتِيبِهِ وَإِعْدادِ أَثاثِهِ وَأَدَواتِهِ؛ مِنَ الْحَشائِشِ والنَّباتِ وَأَوْراقِ الشَّجَرِ. فَرَبَطَتِ الْغُصُونَ بَعْضَها بِبَعْضٍ، وَهَيَّأَتْ مِنْها مَقْعَدًا، وَاتَّخَذَتْ مِنَ الْأَشْواكِ الدَّقِيقَةِ الطَّوِيلَةِ إِبَرًا وَدَبابِيسَ وَمَشابِكَ، وَغَزَلَتْ مِنْ سُوقِ الْكَتَّانِ الدَّقِيقَةِ خُيُوطًا مَتِينَةً، أَصْلَحَتْ بِها ما تَقَطَّعَ مِنْ حِذائِها الَّذِى مَزَّقَتْهُ الْأَشْواكُ.

وَظَلَّتْ عَلَى هٰذِهِ الْأَحْوالِ سِتَّةَ أَسابِيعَ كامِلَةً، لَمْ يَنْقُصْ حُزْنُها يَوْمًا، وَلَمْ يَفْتُرْ نَدَمُها ساعَةً.

وَقَدْ أَنْساها الْحُزْنُ والنَّدَمُ ما كانَتْ تُقاسِيهِ فِى عُزْلَتِها مِنَ الْغُرْبَةِ والْوَحْشَةِ والأَلَمِ.

الفصل التاسع

(١) حَدِيثُ السُّلَحْفاةِ

وَجلَسَتِ «الشَّقْراءُ» عَلَى بابِ الْخُصِّ — ذاتَ يَوْمٍ — مَحْزُونَةً، مُسْتَغْرِقَةً فِى التَّفْكِيرِ فِيما جَلَبَتْهُ مِنَ الْمَصائِبِ عَلَى صَدِيقَيْها؛ فَرَأَت سُلَحْفاةً هائِلَةَ الْجِسْمِ تَقْتَرِبُ مِنْها؛ قائِلَةً بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ تُخالِطُهُ بُحَّةٌ: «شَقْراءُ! شَقْراءُ! أَتُرِيدِينَ الْخُرُوجَ مِنَ الْغابَةِ؟ إنْ كُنْتِ صادِقَةَ الْعَزْمِ عَلَى الْخَلاصِ، فَأَنا ضَمِينَةٌ لَكِ بِذٰلِكِ؛ عَلَى أَنْ تُعاهِدِينِى عَلَى الطَّاعَةِ وَلا تُخالِفِى لِى نُصْحًا.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «كانَ الْخُرُوجُ مِنَ الْغابَةِ كُلَّ أُمْنِيَّتِى فِى الْحَياةِ؛ أَمَّا الآنَ فَلا.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «وَلِماذا غَيَّرْتِ رَأْيَكِ؟»

فَقالَتِ الْفَتاةُ: «لَقَدْ جَلَبْتُ الْمَوْتَ والدَّمارَ عَلَى مَنْ أَحْسَنا إلَىَّ، فَلا عَجَبَ إذا عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَمُوتَ فِى الْغابَةِ مَعَهُما، تَكْفِيرًا عَنْ إساءَتِى إلَيْهِما.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «أَواثِقَةٌ أَنْتِ مِنْ مَوْتِهِما، يا «شَقْراءُ»؟»

فَقالَتْ: «كَيْفَ أَشُكُّ فِى هٰذا وَقَدْ رَأَيْتُ قَصْرَهُما خَرابًا، وَسَمِعْتُ الْبَبَّغاءَ تُحَدِّثُنِى أَنَّهُما ماتا؟ وَما أَظُنُّكِ تُرِيدِينَ بِهٰذا السُّؤالِ إلا أَنْ تُهَوِّنِى عَلَى مُصِيبَتِى، وَتُخَفِّفِى مِنْ نَكْبَتِى. وَأَنا واثِقَةٌ أَنَّهُما لَوْ بَقِيا عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ إلَى الْيَوْمِ، لَما هانَ عَلَيْهِما أَنْ يَتْرُكانِى مُنْفَرِدَةً وَحِيدَةً، لا ناصِرَ لِى وَلا مُعِينَ. وَإنَّ النَّدَمَ لَيَكادُ يَفْتَرِسُنِى كُلَّما ذَكَرْتُ أَنَّنِى كُنْتُ السَّبَبَ فِى مَوْتِهِما.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «مَنْ قالَ لَكِ — يا «شَقْراءُ» — إنَّ فِراقَهُما إيَّاكِ لَمْ يَكُنْ بِرَغْمِهِما؟» لِماذا لا تُقَدِّرِينَ أَنَّهُما لَمْ يَسْتَخْفِيا عَنْكِ إلَّا بِأَمْرِ سُلْطانٍ قاهِرٍ أَكْبَرَ مِنْ سُلْطانِهِما؟ أَلا تَعْلَمِينَ — يا «شَقْراءُ» — أَنَّ النَّدَمَ يَذْهَبُ بِالسَّيِّئاتِ، وَيَمْحُو الْغَلَطاتِ؟»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «كُلُّ أُمْنِيَّتِى أَنْ يَكُونا عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ، يا سَيِّدَتِى السُّلَحْفاةَ، فَماذا وَراءَكِ مِنْ أَخْبارٍ؟»

(٢) وَصِيَّةٌ وَعَهْدٌ

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «لَمْ يُؤْذَنْ لِى أَنْ أُفْضِىَ إلَيْكِ بِشَىْءٍ مِنْ أَخْبارِهِما — أَيَّتُها الْفَتاةُ — وَلَنْ تَظْفَرِى مِنِّى بِذٰلِكِ إلاَّ إذا ضَمِنْتِ لِى أَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُما: أَنْ تَمْكُثِى عَلَى ظَهْرِى سِتَّةَ أَشْهُرٍ كامِلَةً، دُونَ أَنْ تُفَكِّرِى — فِى خِلالِها — فِى النُّزُولِ إلَى الْأَرْضِ. وِالثَّانِى: أَنْ تَحْبِسِى لِسانَكِ عَنِ الْكَلامِ، فَلا تُوَجِّهِى إلَيَّ سُؤالًا — مَهْما تَشْهَدِى مِنَ الْغَرائِبِ — حَتَّى تَنْتَهِىَ رِحْلَتُنا بِسَلامٍ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَكِ عَلَيَّ عَهْدٌ بِذٰلِكِ لا أَنْقُضُهُ.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «تَنَبَّهِى جَيِّدًا، يا «شَقْراءُ» إنَّها سِتَّةُ أَشْهُرٍ لا تَنْزِلِينَ عَنْ ظَهْرِى — فِى أَثْنائِها — لَحْظَةً واحِدَةً، وَلا تُوَجِّهِينَ إلَيَّ — فِى خِلالِها — سُؤالًا واحِدًا، وَلا يُؤْذَنُ لَكِ فِى الْكَلامِ إلَّا بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِىَ الرِّحْلَةُ.

وَعَلَيْكِ أَنْ تَتَذَكَّرِى أَنَّكِ سَتَبْقَيْنَ طَوالَ هٰذِهِ الْأَشْهُرِ السِّتَّةِ تَحْتَ سُلْطانِ الْبَبَّغاءِ الْغادِرَةِ، وَشَقِيقَتِها الْوَرْدَةِ السَّاحِرَةِ، ثُمَّ لَنْ يَكُونَ فِى وُسْعِي أَنْ أُقَدِّمَ لَكِ أَىَّ مُعاوَنَةٍ، بالِغَةً ما بَلَغَتْ مِنَ التَّفاهَةِ والضَّآلَةِ.»

فَقالَتْ لَها: «لَكِ ما تُرِيدِينَ. فَلْنَبْدَأْ رِحْلَتَنا جادَّتَيْنِ، وَلا تُضَيِّعِى لَحْظَةً واحِدَةً، فِى غَيْرِ فائِدَةٍ.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «إذا صَحَّ عَزْمُكِ، فَلْيَكُنْ ما تُرِيدِينَ. فاصْعَدِي عَلَى ظَهْرِى، وَلا تَخْشَىْ جُوعًا وَلا ظَمَأً وَلا أَرَقًا، وَلا تَرْهَبِى شَيْئًا طُولَ الرِّحْلَةِ، فَلَنْ يُصِيبَكِ فِيها — إنْ شاءَ اللهُ — أَىُّ مَكْرُوهٍ.»

فَصَعِدَتِ «الشَّقْراءُ» عَلَى ظَهْرِ السُّلَحْفاةِ الَّتِى قالَتْ لَها: «أَلْجِمِى فاكِ — إنِ اسْتَطَعْتِ — بِلِجامٍ. حَذارِ، يا «شَقْراءُ»، أَنْ تَنْبِسِى بِحَرْفٍ واحِدٍ، قَبْلَ أَنْ نَبْلُغَ نِهايَةَ الرِّحْلَةِ. وَسَتَعْرِفِينَ ٱنْتِهاءَها مَتَى بَدَأْتُكِ بِالْحَدِيثِ.»

الفصل العاشر

(١) سَفَرٌ شاقٌّ

واسْتَغْرَقَتْ رِحْلَةُ «الشَّقْراءِ» سِتَّةَ أَشْهُرٍ كامِلَةً كَما حَدَّثَتْها السُّلَحْفاةُ، قَضَتْ مِنْها ثَلاثَةَ الْأَشْهُرِ الْأُولَى فِى اجْتِيازِ الْغابَةِ، وَثَلاثَةَ الْأَشْهُرِ الْأُخْرَى خارِجَها؛ حَيْثُ وَجَدَتْ نَفْسَها فِى سَهْلٍ مُجْدِبٍ قاسٍ؛ اجْتازَتْهُ فِى سِتَّةِ أَسابِيعَ.



ثُمَّ انْتَهَتْ إِلَى قَصْرٍ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِقَصْرِ غِزْلانِ الْغابَةِ، فَجَعَلَتْ تُسائِلُ نَفْسَها مُتَعَجِّبَةً: «أَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هٰذا قَصْرَ غِزْلانِ الْغابَةِ؟ أَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَهُ؟»

وَلٰكِنَّها اعْتَصَمَتْ بِالسُّكاتِ، وَلَمْ تَجْرُؤْ عَلَى سُؤالِ السُّلَحْفاةِ.

وَدَأَبَتِ السُّلَحْفاةُ فِي سَيْرِها دُونَ أَنْ تُسائِلَها «الشَّقْراءُ» أَوْ تَعْتَرِضَها.

وَكَأَنَّما كانَتِ السُّلَحْفاةُ تَتَباطَأُ فِي سَيْرِها — مُتَعَمَّدَةً — لِتَمْتَحِنَ بِذٰلِكَ صَبْرَ «الشَّقْراءِ». فَقَضَتْ — فِي اجْتِيازِ مَسافَةٍ لا تَحْتاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ساعاتٍ — خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كامِلاتٍ، مَرَّتْ عَلَى الشَّقْراءِ كَأَنَّها خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا.

فَلَمَّا بَلَغَتْ بابَ الْقَصْرِ، لَمْ تَأْذَنْ لِـ«الشَّقْراءِ» أَنْ تَنْزِلَ، بَعْدَ أَنْ وَقَفَتْ عَنِ السَّيْرِ عامِدَةً، دُونَ أَنْ تَتَقَدَّمَ خُطْوَةً واحِدَةً. فَظَلَّتِ الْمِسْكِينَةُ ناظِرَةً إِلَى الْقَصْرِ، شاخِصَةً إِلَى بابِهِ.

(٢) جَزاءُ الصَّبْرِ

فالْتَفَتَتِ السُّلَحْفاةُ إِلَى صاحِبَتِها قائِلَةً: «الآنَ تَنْزِلِينَ يا «شَقْراءُ». والآنَ يُؤْذَنُ لَكِ بِالْكَلامِ، بَعْدَ أَنْ كَسَبْتِ — بِشَجاعَتِكِ وَصَبْرِكِ وَطاعَتِكِ — ما وَعَدْتُكِ بِهِ مَنْ مُكافَأَةٍ جَزِيلَةٍ، وَسَعادَةٍ طَوِيلَةٍ. فادْخُلِى مِنْ هٰذا الْبابِ الصَّغِيرِ الَّذِى تَرَيْنَهُ أَمامَكِ، واسْأَلِى أَوَّلَ مَنْ تُقابِلِين، لِيُرْشِدَكِ إِلَى مَكانِ سَيِّدَةِ الْعَصْرِ، وَحارِسَةِ الْقَصْرِ، الْجِنِّيَّةِ «أُمِّ نَصْرٍ». وَعِنْدَها تَجِدِينَ ما تُحِبِّينَ، وَتَسْمَعِينَ جَوابَ ما تَسْأَلِينَ، وَتَظْفَرِينَ مِنْها.»

فَقَفَزَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى الْأَرْضِ فَرْحانَةً مُبْتَهِجَةً. وَكانَ أَخْوَفَ ما تَخافُهُ، وَأَخْشَى ما تَخْشاهُ، أَنْ تَكُونَ ساقاها قَدْ عَجَزَتا عَنِ الْسَّيْرِ، بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَتا عَنِ الْحَرَكَةِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ كامِلَةً. وَلٰكِنَّها سُرْعانَ ما عاوَدَتْها الطُّمَأْنِينَةُ والثِّقَةُ، حِينَ رَأَتْ أَنَّها أَنْشَطُ لِلسَّيْرِ، وَأَقْدَرُ عَلَى الْحَرَكَةِ، مِمَّا كانَتْ مِنْ قَبْلُ فِى عَهْدِها الْأَوَّلِ.

وَلَمْ تَطْمَئِنَّ إِلَى هٰذِهِ الْخاتِمَةِ السَّارَّةِ حَتَّى شَكَرَتِ السُّلَحْفاةَ أَصْدَقَ الشُّكْرِ عَلَى ما أَسْدَتْ إِلَيْها مِنْ صَنِيعٍ. ثُمَّ أَسْرَعَت إِلَى بابِ الْقَصْرِ.

(٣) حارِسَةُ الْقَصْرِ

وَلَمْ تَجْتَزِ الْوَصِيدَ (الْعَتَبَةَ) حَتَّى أَبْصَرَتْ أَمامَها غادَةً جَمِيلَةً تَرْتَدِى ثَوْبًا أَبْيَض ناصِعَ الْبَياضِ.

وَلَمْ تُبْصِرِ الْفَتاةُ «الشَّقْراءَ» حَتَّى سَأَلَتْها بِصَوْتٍ عَذْبٍ عَمَّنْ تُرِيدُ.

فَقالَتْ لَها: «أُرِيدُ أَنْ أَرَى سَيِّدَةَ الْعَصْرِ، وَحارِسَةَ الْقَصْرِ، الْجِنِّيَّةَ «أُمَّ نَصْرٍ». فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ بإِخْبارِها أَنَّ بِبابِ الْقَصْرِ فَتاةً اسْمُها: «الشَّقْراءُ» تُرِيدُ أَنْ تَسْعَدَ بِلِقائِها؟»

فَقالَتْ لَها الْفَتاةُ: «هَلُمِّى فاتْبَعِينِى، يا أَمِيرَةُ، فَأَنْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ جَدِيرَةٌ.»

فَتَبِعَتْها «الشَّقْراءُ» وَهِىَ تَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ. وَمَرَّتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقاعاتِ البَدِيعَةِ، وَلَقِيَتْ كَثِيراتٍ مِنَ الْأَوانِسِ الْجَمِيلاتِ، مُرْتَدِياتٍ أَبْدَعَ الْثِيابِ الْفاتِناتِ، حالِياتٍ بِأَثْمَنِ الْيَواقِيتِ الْباهِراتِ، وَقَدْ أَقْبَلْنَ عَلَيْها باسِماتٍ.

وَدَهِشَتْ مِنْ حَفاوَتِهِنَّ، وَخُيِّلَ إِلَيْها أَنَّها تَعْرِفُهُنَّ مِنْ قَبْلُ كَما يَعْرِفْنَها، وَتأْلَفُهُنَّ كَما يأْلَفْنَها. ثُمَّ انْتَهَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى بَهْوٍ فَسِيحٍ، ما أَشْبَهَهُ بِما رَأَتْهُ فِى قَصْرِ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، إِنْ لَمْ يَكُنْهُ. وَقَدْ أَثَّرَ فِى نَفْسِها ما رَأَتْهُ تَأْثِيرًا شَدِيدًا، واشْتَدَّ بِها الشَّوْقُ، واسْتَبَدَّ بِها الأَلَمُ، وَطَغَى عَلَيْها الْحُزْنُ، حِينَ اسْتَعادَتْ تِلْكَ الذِّكْرَياتِ الْماضِيَةَ الْسَّعِيدَةَ. فَنَسِيَتْ كُلَّ ما عَداها، وَلَمْ تَفْطُنْ إِلَى آنْصِرافِ الآنسَةِ الَّتِى كانَتْ مَعَها، وَذَهابِها لِاسْتِدْعاءِ الْجِنِّيَّةِ «أُمِّ نَصْرٍ».

وَلَمْ تَرَ «الشَّقْراءُ» شَيْئًا جَدِيدًا فِى هٰذا الْبَهْوِ يَخْتَلِفُ عَمَّا كانَ فِى الْقَصْرِ الْقَدِيمِ إِلَّا صِوانًا كَبِيرًا مِنَ الذَّهَبِ الْخالِصِ، مُرَصَّعًا بِالْعاجِ الْبَدِيعِ الصُّنْعِ، وَكانَ قَدْ أُغْلِقَ بابُهُ. فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَوِّلَ بَصَرَها عَنْهُ، وَشَعَرَتْ بِانْعِطافٍ إِلَيْهِ، وَجاذِبِيَّةٍ وَشَوْقٍ شَدِيدَيْنِ إِلَى رُؤْيَةِ ما يَحْوِيهِ.

وَإِنَّها لَغارِقَةٌ فِى التَّأَمُّلِ، مُستَسْلِمَةٌ لِلتَّفْكِيرِ، إِذِ انْفَتَحَ أَحَدُ أَبْوابِ الْقاعَةِ فَجْأَةً، وَدَخَلَتْ مِنْهُ سَيِّدَةٌ شابَّةٌ فِى ثَوْبٍ رائِعٍ. فَلَمَّا اقْتَرَبَتْ مِنَ «الشَّقْراءِ» قالَتْ لَها بِصَوْتٍ لَطِيفٍ عَذْبٍ: «ماذا تُرِيدِينَ مِنِّى، يا بُنَيَّتِى؟»

فَقالَتْ لَها «الشَّقْراءُ» مُتَذَلِّلَةً ضارِعَةً: «لَقَدْ سَمِعْتُ — يا سَيِّدَتِى الْجَلِيلَةَ — أَنَّ لَدَيْكِ الْخَبَرَ الْيَقِينَ عَنْ صَدِيقَىَّ الْعَزِيزَيْنِ: أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وَوَلَدِها «أَبِى خَداشٍ». وَما أَظُنُّكِ إِلَّا عارِفَةً بِما أَسْلَفْتُ مِنْ خَطَإٍ لا يُغْتَفَرُ حِينَ أَهْمَلْتُ طاعَتَهُما، وَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أُخالِفَهُما، وَأَعْصِىَ أَمْرَهُما. وَقَدْ عُوقِبْتُ عَلَى ذٰلِكِ بِفَقْدِهِما، وَحِرْمانِى مَعُونَتَهُما. وَقَدْ طالَ بُكائِي واشْتَدَّ أَلَمِى لِفَقْدِهِما، وَزادَ نَدَمِى عَلَى مُخالَفَتِهِما، وَطالَ شَوْقِى إِلَى لِقائِهِما. وَقَدْ كِدْتُ أَهْلِكُ غَمًّا؛ وَأَمُوتُ أَسَفًا وَهَمًّا، لَوْلا أَنَّ السُّلَحْفاةَ قَدْ بَعَثَتِ الْأَمَلَ فِى نَفْسِى مِنْ جَدِيدٍ، وَيَسَّرَتْ لِى سَبِيلَ الرَّجاءِ، فَحَمَلَتْنِى إِلَى هٰذا الْقَصْرِ، وَأَخْبَرَتْنِى أَنَّ مِفْتاحَ سَعادَتِى فِى يَدَيْكِ. فَبِماذا تُشِيرِينَ عَلَىَّ؟»

(٤) بَعْدَ فَتْحِ الصِّوانِ

فَقالَتِ الْجِنِّيَّةُ «أُمُّ نَصْرٍ» مَحْزُونَةً مُتَأَلِّمَةً: «سَتَعْلَمِينَ، يا «شَقْراءُ» — بَعْدَ قَلِيلٍ — ما آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ صَدِيقَيْكِ الْعَزِيزَيْنِ، إِذا احْتَفَظْتِ بِما مَيَّزَكِ اللهُ بِهِ مِنْ شَجاعَةٍ وأَمَلٍ،

فَحَذارِ أَنْ تَفْقِدِى إحْدَى هاتَيْنِ الْمِيزَتَيْنِ أَوْ كِلْتَيْهِما، مَهْما تُبْصِرِى مِنْ مُفاجَآتٍ. أَقادِرَةٌ أَنْتِ عَلَى إنْجازِ هٰذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ، وَتَحْقِيقِ هٰذَيْنِ الْمَطْلَبَيْنِ؟» فَقالَتِ «الشَّقْراءُ» وَهِىَ تَرْتَجِفُ: «لَكِ ما تَشائِينَ.»

فَقالَت لَها الْجِنِّيَّةُ: «هاكِ مِفْتاحَ الصِّوانِ الَّذِى طالَ وُقُوفُكِ أَمامَهُ. فافْتَحِيهِ؛ وَحَذارِ أَنْ تَفْقِدِى شَجاعَتَكِ وأَمَلَكِ.»

فَتَقَدَّمَتِ «الشَّقْراءُ» إلَى الصِّوانِ، وَفَتَحَتْ بابَهُ بِيَدٍ رَعِشَةٍ.

فَماذا أَبْصَرَتْ؟ وأَىَّ هَوْلٍ نَظَرَتْ؟ وَبِأَىِّ مُفاجَأَةٍ رُوِّعَتْ؟

لَقَدْ ظَهَرَتْ أَمامَها — فِى الْحالِ — أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ وَوَلَدُها الْأَمِيرُ «أَبُو خَداشٍ»، وَكِلاهُما مُعَلَّقٌ، مَشْدُودٌ مِنْ شَعْرِهِ فِى أَعْلَى الصِّوانِ، مُثَبَّتَةٌ يَداهُ وَرِجْلاهُ بِمَسامِيرَ مَتِينَةٍ مِنَ الْماسِ.

وَمَا أَبْصَرَتْهُما حَتَّى انْبَعَثَتْ مِنْها صَرْخَةُ أَلَمٍ عالِيَةٌ، كادَ يَتَمَزَّقُ مِنْها قَلْبُها. ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْها، فَسَقَطَتْ بَيْنَ ذِراعَىِ الْجِنِّيَّةِ «أُمِّ نَصْرٍ» الَّتِى أَكْبَرَتْ وَفاءَها، وأَسْرَعَتْ إلَى نَجْدَتِها.

ثُمَّ فُتِحَ الْبابُ مَرَّةً أُخْرَى، وَدَخَلَ أَمِيرٌ بَهِىُّ الطَّلْعَةِ، صَبِيحُ الْوَجْهِ، فَأَسْرَعَ إلَى السَّيِّدَةِ قائِلًا: «شَدَّ ما قَسَوْتِ — يا أُمِّى — عَلَى عَزِيزَتِنا «الشَّقْراءِ» فِى هٰذِهِ التَّجْرِبَةِ الْعَنِيفَةِ.»

فَقالَتْ لَهُ مُعْتَذِرَةً: «لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ بِاخْتِيارِى، يا بُنَىَّ — كَما يَعْلَمُ اللهُ — وَإِنْ كانَ قَلْبِى لَيَكادُ يَتَقَطَّرُ دَمًا، مِنْ جَرَّاءِ ما لَقِيَتِ «الشَّقْراءُ» مِنَ الشَّدائِدِ، واحْتَمَلَتْ مِنَ النَّكَباتِ. وَإِنَّكَ لَتَعْرِفُ أَنَّ هٰذا الْعِقابَ الْأَخِيرَ لَمْ يَكُنْ لَنا مَنْدُوحةٌ عَنْهُ لِتَخْلِيصِها مِنْ أَسْرِ ساحِرِ الْغابَةِ الْعَنِيدِ.»

وَلَمْ تُتِمَّ السَّيِّدَةُ هٰذِهِ الْكَلِماتِ حَتَّى لَمَسَتِ «الشَّقْراءَ» بِيَدِها. فَأَعادَتْ إلَيْها الْيَقَظَةَ والِانْتِباهَ. فَكانَ أَوَّلَ ما فاهَتْ بِهِ قَوْلُها: «كَلَّا. لا خَيْرَ فِى الْحَياةِ بَعْدَ ما رَأَيْتُ، وَلا عَزاءَ لِى بَعْدَ هٰذا الْيَوْمِ، إلَّا إذا لَحِقْتُ بِهِما، وَهَلَكْتُ فِى أَثَرِهِما.»

فَضَمَّتْها السَّيِّدَةُ بَيْنَ ذِراعَيْها، مُعْجَبَةً بِوَفائِها وإِخْلاصِها وَعِرْفانِها لِلْجَمِيلِ.

(٥) أَيَّامُ السَّعادَةِ

ثُمَّ قالَتْ لَها باسِمَةً: «شَقْراءُ. لا تَجْزَعِى يا شَقْراءُ. إنَّ صَدِيقَيْكِ لا يَزالانِ عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ، وَهُما لا يَعْدِلانِ بِحُبِّكِ شَيْئًا. أَنْعِمِى النَّظَرَ فِى وَجْهِى، فَأَنا «أُمُّ عَزَّةَ»، وَهٰذا وَلَدِىَ الْأَمِيرُ «أَبُو خَداشٍ.»

ثُمَّ سَكَتَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ لَحْظَةً قَصِيرَةً، واسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَها قائِلَةً: «لَقَدِ انْتَهَزَ ساحِرُ الْغابَةِ فُرْصَةً مُواتِيَةً، فَغافَلَنِى وَسَحَرَنِى وَوَلَدِى وَعِلَةً وَقِطًا، وَحَوَّلَ جَوارِينَا وَخَدَمَنا جَمِيعًا غِزْلانًا. وَلَمْ يَكُنْ لَنا وَسِيلَةٌ لِاسْتِرْدادِ شَكْلِنا الآدَمِىِّ إِلَّا إذا قَطَفْتِ الْوَرْدَةَ. وَلٰـكِنَّ قَطْفَها سَيُكَلِّفُكِ أَهْوالًا، لا قِبَلَ لَكِ بِاحْتِمالِها. وَلَمَّا كُنْتُ عارِفَةً بِما تَتَعَرَّضِينَ لَهُ مِنْ شَقاءٍ إذا حاوَلْتِ أَنْ تُخْرِجِى ساكِنَةَ الْوَرْدَةِ مِنْ سِجْنِها، لَمْ أَشَأْ أَنْ أُخْبِرَكِ بِهٰذِهِ الْحَقِيقَةِ حَتَّى لا تُكابِدِى مِنَ الشَّقاءِ ما كابَدْتِهِ. عَلَى أَنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِى ذٰلِكِ لَبَقِيتُ أَنا وَوَلَدِى مَسحُورَيْنِ غَزالَةً وَقِطًّا، وَلَمْ نَسْتَرِدَّ صُورَتَنا مَدَى الْحَياةِ. وَلَوْ تُرِكَ لَنا الْأَمْرُ لآثَرْنا أَنْ نَبْقَى كَما كُنَّا مَسْحُورَيْنِ، لا يُفَكُّ سِحْرُنا أَبَدًا. وَلٰــكِنْ ما حِيلَتُنا وَقَدْ غافَلَتْنا الْبَبَّغاءُ، وتَمَكَّنَتْ مِنْ لِقائِكِ والتَّحَدُّثِ إِلَيْكِ؟ وَما أَدْرِى: كَيْفَ تَيَسَّرَ لَها ذٰلِكِ بِرَغْمِ ما أَقَمْناهُ فِى سَبِيلِ تَعْوِيقِها مِنَ الْحَواجِزِ؟ وقَدْ حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكِ ما لا تَجْهَلِينَ مِنِ الْأَحْداثِ والْمَصائِبِ. وما أَظُنُّنِى بِحاجَةٍ إِلَى تِبْيانِ ما لَقِيناهُ مِنَ الحُزْنِ فِى أَثْناءِ تَعَرُّضِكِ لِهٰذِهِ الْمِحْنَةِ الَّتِى قاسَيْتِها، أَيَّتُها الْعَزِيزَةُ.»

وَلا تَسَلْ — أَيُّها الْقارِئُ — عَنْ فَرَحِ «الشَّقْراءِ» بِهٰذِهِ الْخاتِمَةِ الْسَّارَّةِ، وَكَيْفَ انْهالَتْ عَلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ تُعانِقُها وَتُقَبِّلُها وَتَشْكُرُها، وَتُثْنِى عَلَى وَلَدِها الْأَمِيرِ النَّبِيلِ. وَلَمْ يَسْتَقِرَّ بِهِمُ الْمَقامُ حَتَّى سأَلَتِ «الشَّقْراءُ» أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ عَمَّا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ غِزْلانِ الْغابَةِ الَّتِى كانَتْ تَقُومُ عَلَى خِدْمَتِها.

فَقالَتْ لَها «أُمُّ عَزَّةَ»: «لَقَدْ رَأَيْتِهِنَّ، يا عَزِيزَتِى الآنَ. إنَّهُنَّ الْأَوانِسُ اللَّواتِى رافَقْنَكِ إِلَى هٰذا الْمَكانِ. حَوَّلَهُنَّ السَّاحِرُ — كَما قُلْتُ لَكِ — غَزَالاتٍ. فَلَمَّا انْطَلَقَ الْجِنِّىُّ، زالَ سِحْرُهُ عَنْهُنَّ، فَعُدْنَ — كَما كُنَّ مِنْ قَبْلُ — آنِساتٍ.»

فَقالَتِ «الْشَّقْراءُ»: «وكَيْفَ حالُ «أُمِّ جَوْذَرٍ» تِلْك الْبَقَرَةِ الْكَرِيمَةِ الْخَيِّرَةِ؟»

فَقالَتْ: «لَقَدْ رَجَوْنا مَلِكَةَ الْجِنِّيَّاتِ أَنْ تُرْسِلَها إِلَيْكِ لِتُخَفِّفَ مِنْ قَسْوَةِ التَّجْرِبَةِ عَلَيْكِ. كَما رَجَوْناها أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْكِ الْغُرابَ «أَبا حاتِمٍ» لِيَبْعَثَ حَدِيثُهُ فِى نَفْسِكِ الصَّبْرَ والْأَمَلَ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: فَأَنْتِ — إِذَنْ — الَّتِى أَرْسَلَتْ السُّلَحْفاةَ إِلَيَّ؟»

فَقالَتْ: «نَعَمْ — يا شَقْراءُ — فَقَدِ اشْتَدَّ حُزْنِى لِما تَحَمَّلْتِ مِنْ آلامٍ مُبَرِّحَةٍ. وَقَدْ عاوَنَتْنِى مَلِكَةُ الْجِنِّيَّاتِ عَلَى تَخْلِيصِكِ مِنْ ساحِرِ الْغابَةِ، عَلَى شَرِيطَةِ أَنْ تَسْتَوْثِقَ مِنْ طاعَتِكِ وَصَبْرِكِ وَشَجاعَتِكِ. فَمَشَتْ بِكِ تِلْكَ الْمَرْحَلَةَ الطَّوِيلَةَ الْمُتْعِبَةَ، وَخَيَّلَتْ إِلَيْكِ — فِيما خَيَّلَتْ — أَنَنِى وَوَلَدِى قَدْ أَصْبَحْنا فِى عِدادِ الْأَمْواتِ، لِتَخْتَبِرَ مِقْدارَ وَفائِكِ لَنا، وَمَدَى عِرْفانِكِ لِصَنِيعِنا. وَقَدْ رَجَوْتُها — جُهْدِى — أَنْ تُعْفِيَكِ مِنْ هٰذِهِ التَّجْرِبَةِ الْقاسِيَةِ، فَلَمْ تُجِبْ رَجائِى. وَقَدْ حَبَسْنا السَّاحِرَ الآنَ، وَأَنْقَذْنا الْعالَمَ مِنْ شَرِّهِ وأَذاهُ.»

وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ «الشَّقْراءِ» بِلِقاءِ «أُمِّ عَزَّةَ» وَوَلَدِها، وابْتِهاجِها بِرُؤْيَتِهِما، بَعْدَ أَنْ يَئِسَتْ مِنْ لِقائِهِما. فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِما تَبُثُّهُما شَجْوَها وَشَوْقَها إِلَيْهِما، وَشُكْرَها إِيَّاهُما.

(٦) اللِّقاءُ بَعْدَ الْيَأْسِ

ثُمَّ مَرَّتْ بِخاطِرِها ذِكْرَى والِدِها الْمَلِكِ «حَبِّ الرُّمانِ».

وَسُرْعانَ ما فَطَنَ الْأَمِير «أَبُو خَداش» إِلَى ما حَدَّثَتْ نَفْسَها بِهِ، وَعَرَفَ ما دارَ بِخاطِرِها، فَقالَ لَها: «تَأَهَّبِى — يا عَزِيزَتِى «الشَّقْراءَ» — لِلِقاءِ والِدِكِ. فَقَدْ أَبْلَغْتُهُ نَبَأَ عَوْدَتِكِ مُنْذُ زَمَنٍ يَسِيرٍ، وَهُوَ الآنَ يَنْتَظِرُكِ بِفارِغِ الصَّبْرِ.»

وَلَمْ يُتِمَّ كَلامَهُ حَتَّى رَكِبَتِ «الشَّقْراءُ» عَرَبَةً مِنَ اللُّؤْلُؤِ والذَّهَبِ، وَإِلَى يَمِينِها «أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ»، وَعِنْدَ قَدَمَيْها الْأَمِيرُ الْوَفِىُّ «أَبُو خَداشٍ». وَشُدَّتْ إِلَى الْعَرَبَةِ بَطَّاتٌ بِيضٌ أَرْبَعٌ، فَطارَتْ بِها فِى مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخاطِفِ، حَتَّى بَلَغَتْ قَصْرَ الْمَلِكِ بَعْدَ لَحَظاتٍ.

وَكانَ الْمَلِكُ — وَحاشِيَتُهُ مِنْ حَوْلِهِ — يَتَرَقَّبُونَ وُصُولَ «الشَّقْراءِ».

وَما رَأَوُا الْعَرَبَةَ حَتَّى دَوَّتْ أَصْواتُ الفَرَحِ، فَأَصَمَّتِ الآذانَ.

وَقَدْ خُيلَ إِلَى الْبَطَّاتِ حِينَ سَمِعْنَ تِلْكَ الصَّيْحاتِ أَنَّهُنَّ أَخْطَأْنَ الطَّرِيقَ، وَلٰكِنَّ الْأَمِيرَ أَسْرَعَ إِلَى تَنْبيهِهِنَّ إِلَى خَطَئِهِنَّ، فَهَبَطَتِ الْعَرَبَةُ أَمامَ بابِ الْقَصْرِ. وَانْدَفَعَ الْمَلِكُ إِلَى بِنْتِهِ فَارْتَمَتْ بَيْنَ ذِراعَيْهِ، وَطالَ عِناقُهُما، وَبَكَى الْحاضِرُونَ جَمِيعًا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

وَلَمَّا سَكَنَ تأَثُّرُ الْمَلِكِ انْحَنَى عَلَى يَدِ الْجِنِّيَّةِ يُقَبِّلُها، شاكِرًا ما بَذَلَتْهُ فِى سَبِيلِ بِنْتِهِ «الشَّقْراءِ» مِنْ عِنايَةٍ وَرِعايَةٍ، قادِرًا لَها مَعُونَتَها وَمُرُوءَتَها فِى الْقِيامِ عَلَى تَرْبِيَتِها وَتَثْقِيفِها وَحِمايَتِها. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى وَلَدِها الْأَمِيرِ الْوَدِيعِ الْكَرِيمِ، شاكِرًا لَهُ أَصْدَقَ الشُّكْرِ. وَأُقِيمَتْ حَفَلاتُ الابْتِهاجِ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ.

وَلَمَّا اسْتَأْذَنَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ فِى أَنْ تَعُودَ إِلَى قَصْرِها، شَعَرَتِ «الشَّقْراءُ» والْأَمِيرُ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ، وَبَكَيا بُكاءً حارًّا مِنْ أَلَمِ الْفِراقِ. فَرَجاها الْمَلِكُ أَنْ تَبْقَى هِىَ وَوَلَدُها مَعًا فِى قَصْرِهِ.

(٧) خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى تَزَوَّجَ الْمَلِكُ أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ، وَتَزَوَّجَتِ «الشَّقْراءُ» وَلَدَ الْأَمِيرَةِ.

امَّا «السَّمْراءُ» فَقَدْ أَصْبَحَتْ خَلْقًا آخَرَ، وَصارَتْ — بِفَضْلِ ما تَحَلَّى بِهِ زَوْجُها مِنْ حَزْمٍ وَكِياسَةٍ — مِثالًا لِلُّطْفِ والْوَداعَةِ والْأَمانَةِ.

أَمَّا «الشَّقْراءُ» فَقَدْ أَنْساها ما ظَفِرَتْ بِهِ مِنَ السَّعادَةِ كُلَّ ما لَقِيَتْهُ مِنْ تَعَبٍ وَعَناءٍ، فِى أَيَّامِ الْبُؤْسِ والشَّقاءِ.

وَعاشُوا جَمِيعًا فِى هَناءٍ وَسُرُورٍ، تُرَفْرِفُ عَلَيْهِمْ أَعْلامُ السَّعادَةِ، والْهَناءَة والرَّغادَةِ، وَعاشُوا فِى ثَباتٍ وَنَباتٍ، وَخَلَّفُوا الْبَنِينَ والْبَناتِ.

يُجابُ مِمَّا فِى هٰذِهِ الْحِكايَةِ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الْآتِيَةِ

الفصل الأول

(س١) ماذا لقيت «الشقراء» من أبيها، بعد وفاة أمها؟

(س٢) من التى اختارها الوزير زوجة للملك؟ وماذا خدعه منها؟

(س٣) لماذا ترك الملك بنته فى كفالة مرضعتها ومربيتها؟

(س٤) ماذا ورثت «السمراء» عن أمها «سمية»؟

الفصل الثاني

(س١) لماذا سمى «شرهان» بهذا الاسم؟ ولماذا تجنب الناس «غابة الزنبق»؟

(س٢) ماذا اشترطت «سمية» على «شرهان» ليظفر بما يطمع فيه؟

(س٣) لماذا رغبت الفتاة فى دخول «غابة الزنبق»؟ وبماذا عوقب «شرهان»؟

الفصل الثالث

(س١) ماذا شغل «الشقراء» وهى فى الغابة؟ وماذا خشيت؟

الفصل الرابع

(س١) ماذا لقيت «الشقراء» حين استيقظت؟ وماذا طلبت من «أبى خداش»؟

(س٢) لماذا اطمأنت الفتاة وهى تتبع «أبا خداش»؟ وأين انتهى بها السير؟

الفصل الخامس

(س١) ماذا دار بين أميرة الغزلان والفتاة؟ ولمن الأمر فى الغابة؟

الفصل السادس

(س١) كيف أصبحت صورة الفتاة؟ وكم أمضت نائمة؟ وماذا استفادت؟

(س٢) ماذا طلبت «الشقراء»؟ وبم حدثتها المرآة؟ وكيف حلم بها أبوها؟

(س٣) بماذا صورت المرآة مصير «سمية» وابنتها؟ لماذا منعت الفتاة من دخول الغابة؟

الفصل السابع

(س١) ما المدة التى حددتْها أميرة الغزلان لترى الفتاة أباها؟ وبماذا نصحتها؟
(س٢) ماذا دار بين الببغاء والفتاة؟ وكيف صورة حقيقة أميرة الغزلان وابنها؟
(س٣) ما المراد بالطلسم؟ وكيف الظفر به؟ وما الزهرة المنهى عن ذكرها؟
(س٤) ماذا فعلت الفتاة بالقط؟ ولماذا شكرت كل من الوردة والببغاء الفتاة؟

الفصل الثامن

(س١) كيف رأت الفتاة مصير القصر؟ وعلام ندمت؟ وبماذا حدثها الغراب؟
(س٢) بماذا أفادت الضفدع الفتاة؟ وبم ارتوت؟ وكيف أقامت خصًا للمبيت؟

الفصل التاسع

(س١) ماذا تحدثت السلحفاة عن سطوة الببغاء: الساحر، والوردة: الساحرة؟
(س٢) بماذا شرطت السلحفاة لكى تخبر الفتاة بما تطمح إليه من أخبار؟

الفصل العاشر

(س١) ما غرض السلحفاة من طول المدة التى قضتها على ظهرها؟
(س٢) ما حقيقة أميرة الغزلان وابنها؟ وكيف صنع بهما ساحر الغابة؟